تعريف بكتاب تذكرة المتقين

هذا الكتاب الذي بين يديك ، من الكتب التي اكتسبت صيتاً وسمعةً في أوساط الخواص من المهتمين بمراقبة النفوس ، وبالخروج من فلك المادة وشهواتها ، إلى ملكوت اللقاء الإلهي .. فإنه يجمع بين :

-السلاسة في التعبير ، والبساطة في الأسلوب ، فهو من مصاديق ما خرج من القلب ، ودخل في القلب ·
-الموازنة في الطرح ، والجمع بين آداب السلوك القلبي ، والعمل بحذافير الشريعة في كل شؤون الحياة .. فإن المؤلف يتكلم من وحي الخبرة في هذا الطريق ، متأثراً بأستاذه الذي كان ولا يزال علماً متميزاً في سلسلة المراقبين لنفوسهم .
إن المؤلف أراد من خلال تعابير مختلفة أن يثير في الجميع دواعي :

اولا - الرجوع إلى النفس ومعرفة أسرارها والاهتمام بها ، كأول دائرة من دائرة الاهتمام التي يحاسب عليها العبد يوم القيامة .. فإن بصلاح نفوس الأفراد تصلح الأمم ·

ثانيا - عدم الاكتفاء ببعض الممارسات العبادية ، بل الاشتغال بالمجاهدة الشاملة التي تحدث تغييراً جوهريا في أعماق النفس ، لتحولها من نفسٍ أمّارة ، إلى نفس لوّامة ، ومن ثمّ إلى نفس مطمئنة ·

ثالثا - الاعتقاد بأن السير إلى الله عزّ وجلّ ليست حركة تخصصية ، يشكّل اهتمام طبقة قليلة من المجتمع ، بل أنه المصير الذي لا بدّ منه ، بعد أن علمنا أننا سائرون شئنا أم أبينا إليه قهراً ، بمقتضى قوله تعالى : { وإن منكم إلا آتي الرحمن عبدا }

ومما ينبغي ذكره ، أنّ هذا الكتاب – الذي كتب بالفارسية – مجموعة من المقالات والمراسلات ، دارت بين أصحابها وبين من كانوا مورداً لاهتمامهم ..ومن الملاحظ أنها كثيراً ما كتبت :
-بصيغة الرسالة العفوية ، كخطاب صديقٍ لصديقه ، ولهذا تخللتها الأشعار وبعض المطايبات ·
-من دون تبويب مقصود ، يراد به لاحقاً أن يكون كتاباً يتناقله أهل الاهتمام بهذا المجال .

ومن حيث أنّ ما كان لله تعالى ينمو ، فإن هذه الرسائل – رغم أنها لم تكتب لتنشر– وجدت سبيلها إلى الطبع سنة 1329هجرية على يد الأديب ميرزا إسماعيل التبريزي .

ومن الضروري أن نلفت النظر إلى أسلوبنا في الترجمة ، فإننا :
-لم نتقيّد بالنص الحرفي في الترجمة ، وخاصة أنّ الغالب عليها معاني وجدانية ، لا بدّ من عرضها بأسلوبٍ من التفاعل كان يعيشه الكاتب في حينه ..وإنما أخذنا روح ما أراده المؤلف ووضعناه في القالب الذي يناسبه .
-اتبعنا أسلوب الحذف والاختصار ، ودمج بعض المكاتبات بعضها ببعض ، لاعتقادنا بجدوى اختيار بعض المقاطع من المراسلات ، لكون البعض الآخر – مثلا – مما فيه خطاب خاص وعتب على ذلك الزمان وأهله .

وإنما أجزنا لأنفسنا هذه التصرفات ، توخّياً لتحقيق الهدف الذي من أجله سجّل يراع هؤلاء الأبرار مكنونات الأنفس ، وبثّوا به مكامن القلوب ، بحرقةٍ واضحةٍ وحرصٍ شديدٍ .

وإليكم تعريفٌ بالكتاب وأصحاب المراسلات ، كما ورد في الأعيان والذريعة ، للسيد محسن الأمين العاملي .. إذ كان معاصراً لبعضهم :

تعريف بالكتاب كما ورد في الذريعة (ج 4/ص46 :)

تذكرة المتقين : فارسي ، فيه جملة من كلمات الأعاظم في الأخلاق ، ومكاتيبهم الصادرة في آداب السلوك ، منها :
مكاتبة جمال السالكين ، الشيخ الفقيه الورع والزاهد المولى حسين قلي الدرجزيني النجفي المتوفي زائرا في الحائر الشريف سنة 1311 هجرية ..
ومكاتبة تلميذه الأجلّ ، ووصيه العالم السالك ، الشيخ محمد ابن ميرزا محمد البهاري الهمداني النجفي ، المتوفي في مسقط رأسه (بهار) في تاسع رمضان1325 هجرية ..
ومكاتبة تلميذه الآخر ، العالم الورع ، العامل السيد أحمد بن إبراهيم الموسوي الطهراني المعروف بـ (كربلائي) لولادته في الحائر الشريف ، وتوفى عصر يوم الجمعة السابع والعشرين من شوال 1332هجرية.

تعريف بالمؤلف واصحاب المراسلات

تعريف بالشيخ محمد بن الميرزا محمد الهمداني البهاري النجفي (مؤلف كتاب تذكرة المتقين) كما ذكره في أعيان الشيعة- ج 9/ ص 402 :

البهاري : نسبة إلى بهار – قرية من قرى همدان - كان من العلماء الربانيين والسالكين المراقبين ، تتلمذ في النجف على الملا حسين قلي الهمداني النجفي الأخلاقي المشهور ، تلميذ الشيخ مرتضى الأنصاري ، وكان من أخصّ تلامذته ..
وكان المترجَم ذا صفات ومقامات رفيعة ، مشتغلا بالعلم ، دائم المراقبة ، وكان لوجوده آثار شريفة ، زار المشهد المقدس في خراسان ، وتوفى راجعا من زيارته في وطنه الأصلي بهار .

تعريف بالسيد أحمد بن السيد إبراهيم الموسوي الطهراني المعروف بالسيد أحمد الكربلائي (صاحب بعض المراسلات في هذا الكتاب) ، كما ذكر في أعيان الشيعة – ج 2 / ص 472

شيخنا وأستاذنا ، قرأنا عليه في الفقه والأصول في النجف سطحاً ، واستفدنا من علمه وأخلاقه .
وكان عالماً فاضلاً ورعاً تقياً كاملاً مرتاضاً مهذب النفس ، من تلامذة ميرزا حسين قلي الهمداني النجفي المدفون بالحائر ، الأخلاقي الشهير ، تتلمذ عليه في علم الأخلاق وغيره ، ومن تلامذة الشيخ ملا كاظم الخراساني .... وله مؤلفات في الفقه والأصول ، وله كتب بالفارسية أرسلها إلى أصدقائه في الأخلاق ، جمعت وطبعت باسم تذكرة المتقين .

تعريف بالملا حسين قلي الهمداني الدرجزيني النجفي (صاحب بعض المراسلات في هذا الكتاب (كما ورد في أعيان الشيعة – ج 6 / ص136

توفى زائراً بكربلاء سنة1311 ، ودفن في الحجرة الرابعة من الصحن الشريف على يسار الداخل من باب الزينبية و
)قلي) بالفارسية بمعنى الغلام أي عبد الحسين ..
كان فقيهاً أصولياً متكلماً أخلاقياً إلهياً من الحكماء العرفاء السالكين ، مراقباً محاسباً لنفسه ، بعيداً عن الدنيا وأسبابها والرياسات .. لم يتعرّض للفتوى ولم يتصدّ للزعامة .. قرأ في الفقه والأصول ما سمعه من استاذه الشيخ مرتضى الأنصاري ، وما استخرجه بنفسه ..
وعُرف بعلم الأخلاق ، وكان يدرّس فيه كل يوم صباحاً في داره ، ويدرّس بعده في الفقه والأصول ..وكتب بعض تلاميذه ثلاث مجلدات من تفسير بحثه في الفقه :
-1صلاة المسافر 2- الخلل 3- القضاء والشهادات

ولم يكن في زمانه ولا قبله بسنين ولا بعده كذلك من يماثله في علم الأخلاق وتهذيب النفوس ..
وكان جارنا أول ورودنا إلى النجف سنة 1308، وحضرنا درسه في الأخلاق أياما قليلة ، وصدّنا عن المداومة عليه اشتغالنا بما هو أهم ، ومع ذلك فقد أسفنا على عدم المداومة عليه بأي نحو كان ..
وانتفع بدرسه الأخلاقي خلق كثير من فضلاء العرب والعجم ممن أراد الله بهم الخير ..رأينا جملة منهم ووجدنا أثر ذلك فيهم ، كما أننا رأينا بعض من حضر عليه ولم ينتفع بذلك ، بل كان على العكس { ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء }
صقل السيوف الهندية يجعلها صالحة للضرب ، أما صقل الأخشاب فلا يجعلها سيوفاً .

مشايخه : كانت عمدة قراءته على الشيخ مرتضى الأنصاري ، وكان يدرّس في الأصول في كتابه الذي كتبه من تقرير بحث أستاذه المذكور .

تلاميذه : منهم من تتلمذ عليه في الأخلاق وفي الأصول والفقه :

-1الشيخ محمد بن محمد البهاري – نسبة إلى بهار من قرى همدان ، المتوفى سنة 1325 ، وأوصى إليه أستاذه المذكور عند وفاته .

-2سيد أحمد الطهراني المعروف بالكربلائي – المتوفي سنة 1332

-3الآقا رضا تبريزي – المتوفي سنة 1321

-4السيد كمال المشهور بميرزا آقا الدولت أبادي – المتوفي سنة 1328

-5السيد محمد سعيد الحبوبي النجفي الشاعر المشهور – المتوفي سنة 1333

-6الشيخ موسى شرارة العاملي – المتوفي سنة 1312

-7السيد حسن صدر الدين العاملي - المتوفي سنة 1354

-8السيد مهدي الحكيم النجفي – المتوفي سنة 1312

-9الشيخ باقر القاموسي النجفي – المتوفي سنة 1353

-10السيد عبد الغفار المازندراني .

-11الشيخ محمد باقر النجم آبادي.

آداب التوبة

اعلم أيها العزيز!.. أن التوبة من المعاصي أول طريق السالكين إلى الله تعالى ، وهي رأس مال الفائزين ، ومفتاح استغاثة المريدين ، وأصل نجاة الناجين

وقد وردت الآيات والأخبار الصحاح في فضل ذلك ، ويكفي مدحاً لها قول أصدق الصادقين في كتابه الكريم : }إن الله يحب التوابين { . البقرة /222 .. وقول النبي (ص) : التائب من الذنب كمن لا ذنب له. الكافي 2/ص435 .. وقد ذكرتْ معان عديدة للتوبة ، فمنها :

المعنى الفقهي: وهو ترك المعاصي في الحال ، والعزم على الترك في الاستقبال ، وتدارك ما يمكن تداركه في المآل .
ومن معانيه : خلع لباس الجفاء ، ثم نشر بساط الوفاء .
ومن معانيه : مطلق الندم .
وعلى أي حال ، لا إشكال في وجوبه عقلاً وشرعاً بلا تأمل ، إذ لو علمت انحصار السعادة الحقيقية الأبدية في لقاء الله تعالى ، لعلمت أن المحجوب عنه شقي محترقٌ بنار الفراق في دار البوار ، ومن المعلوم أن من أغلظ الحجب : حجاب اتباع الشهوات وارتكاب السيئات ، لكونه إعراضاً عن الله تعالى بمتابعة الشيطان والهوى ، بل بعبادتهما في الواقع ، لما روى من أنه : من أصغى إلى ناطق فقد عبده. الكافي 6/ص434 ..
ولعلمت أيضا أن الانصراف عن طريق البعد للوصول إلى مقام القرب واجب ، ولا يتم الانصراف إلا بالأمور الثلاثة المذكورة في معنى التوبة ، وقد تقرر في محله أن مقدمة الواجب واجبة عقلاً وشرعاً ، نظراً إلى الملازمة بينهما ، كما أن وجوبه أيضا فوري كما لا يخفى .. فكما أن شارب السم لا بد له من إخراج السم من بدنه فوراً – بقيءٍ أو بغيره – وإلا سبّب له الهلاك الدائم ، فكذلك الأمر في سموم المعاصي ، فلو تساهل في التوبة منها ، فسيحل عليه الهلاك ويختم له بالشر ، وقد كانت عمدة خوف الأنبياء والأولياء من سوء الخاتمة .

فالبدار البدار!.. يا إخوان الحقيقة وخلان الطريقة إلى التوبة الحقيقية ، قبل أن تعمل سموم الذنوب في روح الإيمان بما لا ينفع بعده الاحتماء ، وينقطع عنه تدابير الأطباء ، ويعجز عن التأثير فيه نصح العلماء ، وتكونوا من مصاديق قوله تعالى :
}وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون{ . يس/9

ثم اعلم أيها الأخ الأعز!.. أنك لا تخلو من المعصية في جوارحك من: الغيبة ، والإيذاء ، والبهتان ، وخيانة البصر وغيرها من صنوف المعاصي ، ولو فرض خلوك منها ، فإنك لا تخلو عن الرذائل في نفسك والهمّ بها ، وإن سلِمت منها فلا أقل من الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، ولو سلِمت منها أيضاً فلا أقل من الغفلة والقصور في معرفة الله وصفات جماله وجلاله وعجائب صنعه وأفعاله ، ولا ريب في أن كل تلك الأمور ، من موجبات النقص التي ينبغي تداركها ، ولذلك وجبت التوبة في كل آنٍ من الآنات .. إذ قال أشرف المخلوقات صلى الله عليه وآله :
إنه ليغان على قلبي ، حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة المستدرك 5/ص320 ..

فإذا عرفت معنى التوبة وضرورتها ، والتفت إلى أن تركها يعني الإصرار على الذنب ، فاعلم أن الله تعالى إنما يقبل

التوبة الصحيحة بشروطها ، ومنها غسل وسخ القلوب بالدموع ، بعد اشتعال نيران الندامة فيها .
وكلما زادت نيران الندم اشتعالا كلما تحقق الأمل بتكفير الذنب ، وبذلك تتحقق علامة الصدق في التوبة.. وعليه فلا بد من تبديل حلاوة الشهوات بمرارة الندم ، ليكون علامة على تبدل السيئات بالحسنات .. ألم تسمع قصة ذلك النبي من بني إسرائيل الذي سأل الله التوبة لعبدٍ أمضى حياته جاهداً في عبادة ربه ، فلم يقبل الله تعالى توبته لأنه كان يجد حلاوة المعصية – التي تاب منها – في قلبه .!!
ومن هنا قالوا أنه لا بد من إذابة اللحم الذي نبت على الحرام ، فهو لحمٌ فاسد ومفسد للصحيح .

ولا بد من تعلق قصده بترك كل مُحرّم ، وأداء كل واجب في الحال وفي الاستقبال إلى أن يلقى ربه ، كما أنه لا بد من تدارك ما قد فاته في سالف أيامه .
إن على التائب أن يستقصي في نفسه عالم ما قبل البلوغ وحين البلوغ وبعد البلوغ ، لينظر إلى تصرفاته في أموال الآخرين ، سواء كانت بعمد أم خطأ ، مكلفاً كان أو غير مكلف .. فإذا كان حقاً مالياً ووجد صاحبه – ولو كان وارثا – استحل منه ، وإلا رد تلك المظلمة حين القدرة والاستطاعة .

ثم ينظر في الطاعات ، فما ترك منها يلتزم بقضائها وكفارتها.. ثم ينظر إلى الحقوق الشرعية كالخمس والزكاة وما في ذمته ، فيوصلها إلى مصارفها الشرعية لئلا يبقى في حياته ما يحتاج إلى تداركٍ وتعويض ، فإنه لو مات على تلك الحالة أُبتلى بالعذاب الأليم .

وإلى جميع ما ذكر يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: الاستغفار واقع على ستة معان :
أولها الندم على ما مضى ، ثم العزم على ترك العود اليه أبدا ، وأن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم ، حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعةٌ ، وأن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها ، وأن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتُذيبه بالأحزان ، حتى تُلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ، وأن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله . البحار 90-285
ومن المناسب أن تكون الطاعة – في مقام التوبة – من جنس المعصية ، فإذا كان عاصياً بسفر محرم فتداركُه إنما يكون بسفر الطاعة ونحو ذلك ، مما يطول ذكر أمثلته ..

ولا بد أن يحقق في نفسه شيئاً من الحزن والندامة الصادقة ، ثم يتوب بالطريقة التي ذكرها السيد بن طاووس في ما رواه عن النبي (ص) وهي : أن يغتسل ويتوضأ ، ثم يصلي أربع ركعات : يقرأ في كل منها {الحمد { مرة و{ قل هو الله أحد } ثلاث مرات { والمعوذتين } مرة ثم يستغفر سبعين مرة ، ثم يختم بكلمة : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم يقول سبع مرات :
يا عزيز !.. يا غفار !.. اغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

فإن من قام بهذا العمل قُبلت توبته ، وغُفرت ذنوبه ، ورضي عنه خصماؤه يوم القيامة ، ومات على الإيمان وما سلب منه الدِّين ، ويُفسح في قبره ويُنوَّر فيه ، ويرضى عنه أبواه ، ويُغفر لأبويه ولذريته ، ويوسَّع في رزقه ، ويرفقُ به ملكُ الموت عند موته ، ويخرج الروح من جسده بيسر وسهولة .

ومن المناسب – قبل هذا العمل – أن يُقدّم شيئاً من الصدقة ولو كانت قليلة ، لأن صدقة السر تُطفئ غضب الرب تعالى .. وأن يذهب إلى مكان خالٍ جالساً على التراب ، متذكراً معاصيه واحدة بعد أخرى ، مصرحاً بزمانه ومكانه ، ملتمساً من ربه المغفرة ، معترفاً بالندامة .. وهكذا يحسن التفصيل في الاعتراف بجزئيات الذنوب ، ببكاء وحزن .

كما أنه من المناسب أيضا بعد ذلك ، قراءة دعاء التوبة في الصحيفة السجادية وأوله: يا من لا يصفه نعت الواصفين .. الصحيفة ص138 وكذلك المناجاة الأولى من المناجاة الخمسة عشر.. ثم يقسم على الله تعالى بحق المقربين لديه أن يقبل توبته ، ثم يسأله العزم على الثبات ، وليغلب على ظنه أن الله تعالى يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، فهو يعامل عبده بمقدار حسن ظنه به ، كما تدل عليه الروايات .

ولو خالف التوبة وعاد إلى المعصية ، فعليه بالتوبة مرة بعد أخرى ولا ينبغي له أن ينتابه اليأس من العودة إلى الذنب ، فإنه أرحم من كل رحيم .
واعلم أن للإنسان ثلاث حالات في المعاصي: حالةٌ قبل المعصية ، وحالةٌ حين المعصية ، وحالةٌ بعد المعصية ، ولكل من الحالات أحكام مختلفة .
أما حاله قبل ارتكاب المعصية : فعليه أن يلقّن نفسه أخبار الخوف ، لعل ذلك يوجب له الانصراف عن المعصية ، فليتصوّر ما لو هدده مولاه بقوله : (إني لا أغفر لك أبداً .(

فإن الرب قد جعل للعبد حدوداً من المخالفة يستحق فيها العفو.. فإذا تجاوز العبد حدّه طرده مولاه ، وأخرجه من قابلية التوبة والمغفرة ، إذ أن الرحمة – في هذه الحالة – خلاف مقتضى الحكمة ، ومن المعلوم أن العبد عند كل معصية ، يحتمل أنه – بتلك المعصية – قد تجاوز الحدَّ الموجب للطرد .

وأما حاله حين ارتكاب المعصية : فإنه لا بد أن يشتد عندها خوفُه ، لأن مالك الملوك – جلّ شأنه العظيم – حاضر لديه ، وناظر إليه ، والعبد في محضره يهتك حرمته وهو يعلم أن كل ما في الوجود ، جنود مجندة بين يدي مولاه ، بل جوارحه التي عصى بها ، فإنها طوع إرادته في أن يعاقب بها من يريد .
وليعلم أن العودة إلى التوبة ، مما يُحمد عليها في أية مرحلة من مراحل المعصية ..
وأما حاله بعد المعصية وغلبة الشهوة : فإنه ينبغي مراجعة أخبار الرجاء ، لئلا يُلقي الشيطان في روعه اليأس قائلا : إنك عصيت عن عمدٍ والتفات ، فما فائدة التوبة بعد ذلك ؟ ..

إن على العبد – في هذه الحالة – أن يعلم أن كل وهمٍ وخيالٍ يمنعانه عن التوبة والتدارك إنما هو من الشيطان .. فلا بد من تذكير نفسه بكرم المولى عز اسمه ، وأن اليأس من رحمته من المعاصي الكبيرة .
فكيف لا يعود العبد إليه وهو الراحم لمن لا راحم له ، وهو الذي تسمى بالوهّاب لكثرة جوده ، وهو الذي عند حسن ظن عبده المؤمن ..كل هذه الأمور تدل بوضوح على أن العبد إذا لم يكن متمرداً على المولى ، فإن الرحمة الواسعة شاملة له ، إلا إذا قبُحت الرحمة في حقه .

وقد ورد عن النبي (ص) قبول توبة من قتل سبعين نبياً ثم تاب إلى الله تعالى .

ثم اعلم أيها الأخ الأعز !.. إن العبد إذا تاب على التفصيل المذكور فإنه سيكون في أول درجات التائبين .. فلا بد له من الوصول إلى حقيقة التوبة بعد ذلك .
إنّ حقيقة التوبة ليست هذه الألفاظ وإنما لها واقع ودرجات ، شأنها شأن جميع الدرجات الأخلاقية ، التي لها حقائق لا بد من استيعابها ، وهي مما لا يمسه إلا المطهرون .

فهذا آدم (ع) قال: { ربنا ظلمنا أنفسنا } . الأعراف/23.. وهذا نبي الله أيوب (ع) قال: { رب إني مسني الضر وأنت ارحم الراحمين }. الأنبياء/83 ..ونحن نكرر ما قالاه ، ولكن كم من الفرق بين الأمرين !!
إن استيعاب حقائق كلامهم (ع) ودقائق إشاراتهم ، يفوق ما يدور بيننا من سؤال وجواب ، ورسالتنا هذه لا تحتمل تفاصيل هذا الأمر.. اللهم اهدنا فيمن هديت .
فحاصل الكلام من البدء إلى الختم بتقرير آخر : إن السالك سبيل التقوى يجب عليه مراعاة أمور.

آداب المراقبــة

الأول : ترك المعاصي وهذا هو الذي بُني عليه قوام التقوى ، وأُسّس عليه أساس الآخرة والأولى .. وما تقرب المقربون بشيء أعلى وأفضل منه .

ومن هنا عندما سأل موسى (ع) عن العمل الذي صار به الخضر (ع) معلماً له ، كان الجواب : ترك المعصية .

وعليه فلا بد من الالتفات إلى عظمة هذا الأمر ، لأن نتائجه أيضا عظيمة .

فكم من القبيح أن يهتك العبد ستر الحياء وهو غارق في نعم مولاه ، مستمد من فيض العطاء آنا فآنا ، إذ أنه :مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة ، وهو معكم أينما كنتم .

فلو حُبس العبد العاصي في سجن جبار السماوات والأرض أبد الآبدين لكان بذلك جديرا ، إلا أن ينزع عن المعصية بالتوبة لتشمله الرحمة الواسعة .

الثاني : الاشتغال بالطاعات بعد الفرائض ولكن بشرط الحضور ، فإن روح العبادة هو حضور القلب .. ومن دون هذا الحضور فإنه لا تتحقق للقلب حياة أبدا .

بل قد يقال أن العبادة بلا حضور قد تورث قسوة القلب.. وعليه فإنه يحسن في أول الأمر أن يجعل ورده (الاستغفار) .. ومن بعده الذكر اليونسي : { لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين }. الأنبياء /87 .. وفي آخره الكلمة الطيبة : لا إله إلا الله بشرط الاستمرار والمداومة

الثالث :عدم الغفلة عن حضور الحق دائما وأبداً ، وهذا هو السنام الأعظم الرافع إلى مقام المقربين ، ومن كان طالباً للمحبة والمعرفة ، فليستمسك بهذا الحبل المتين ، وإلى هذا يشير قوله (ص : (اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .البحار 393/67 ..

فحالة العبد الباطنية في هذه المرحلة ، حالة من يرى نفسه واقفاً بين يدي مولاه ، والمولى يعلم ذلك منه ، ويرى ما هو فيه .

وفي هذا الخبر إشارة إلى أن العبد – في مقام العبادة – لا يحتاج إلى استحضار هيئة خاصة للمولى ، ليحتاج بعد العجز عن ذلك ، إلى استحضار صورة مخلوق – كما زعمه بعض جهّال الصوفية - بل يكفي علمه بأن مولاه حاضر لديه وناظر إليه.. فتأمل فإنه دقيق نافع .

الرابع :الحزن الدائم خوفاً من العقاب - لو كان من الصالحين – أو شوقاً إلى اللقاء – لو كان من المحبين – فإذا انقطع الحزن عن القلب ، انقطعت الفيوضات المعنوية تبعا لذلك .

ومن هنا حكى عن لسان حال التقوى أنه قال: إني لا أسكن إلا في قلب محزون ، والشاهد على هذا المدعي قوله تعالى في الحديث القدسي :

أنا عند المنكسرة قلوبهم. البحار 157/70

وعليه فاعلم أيها العزيز !.. أن ما يرد على القلب من الواردات الحسنة – سواء كان حزناً أو فكراً - فهو بمثابة الضيف

الذي لو أُكرم عند نزوله – دفعاً لما يؤذيه وجلبا لما يرضيه - فإنه سيعود إلى ذلك المنزل مرة أخرى ، وإلا فإنه سيرحل كارهاً له ، غير عائد إليه .

إن على العبد أن يعلم قدر ما هو عليه من الإقبال ، وإلا فإنه من المستبعد أن يعود إليه بعد الزوال .
وبالجملة فلو أردت أن تشم رائحة الكمال ، فعليك بمجاهدة النفس التي هي أصعب من مجاهدة الأعداء.. فالعارفون يطلقون على هذا الجهاد : الموت الأحمر .
ومن لوازم المجاهدة ، أن تؤمن بأن أعدى أعدائك هي نفسك التي بين جنبيك ، تلك النفس المتصرفه في رأسمالك وأركان وجودك .!

إن على المراقب لنفسه أن يتفطن في أول النهار إلى أمور :
الاول : المشارطة كمشارطتك شريكا لك في مالك عندما ترسله للتجارة ، بل أكثر من ذلك.. لأن خيانة الشريك غير معلومة، ولكن خيانة النفس قد علمتها مراراً وتكراراً .
الثاني : المراقبة لئلا تسوق النفس الجوارح الى ما يسخط المولى المتعال ، وبالتالي ضياع فرصة من فرص العمر ، تساوي لحظة منها جميع الدنيا بحذافيرها .
الثالث :المحاسبة لتعلم تفصيل ما فعلته في النهار: خسارةً ، أو ربحاً ، أو بقاءً على رأس المال .
الرابع :المعاتبة لتُلقي اللوم على نفسك إذا لم تكن رابحاً ، أو تعاقبها إذا كنت خاسرا.. ومعنى المعاقبة هو إلزام النفس بالرياضات الشرعية : كالصيام في الصيف ، أو المشي إلى البيت إذا لم يكن فيهما حرج شديد ، لاستعادة السيطرة على زمام النفس قبل فوات الأوان .

والحاصل : أنه لو منعتك قسوة القلب من التأثر بالمواعظ الشافية ، ورأيت الخسران في نفسك يوماً بعد يوم ، فاستعن عليها بدوام التهجد والقيام، وكثرة الصلاة والصيام ، وقلة المخالطة والكلام ، وصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، وواظب على النياحة والبكاء ، واقتد بأبيك آدم وأمك حواء ، واستعن بأرحم الراحمين ، وتوسل بأكرم الأكرمين ، فإن مصيبتك أعظم وبليتك أجسم ، إذا انقطعت عنك الحيل ، وزاحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مستغاث ولا ملجأ إلا إليه ، فلعله يرحم فقرك ومسكنتك ، ويغيثك ويجيب دعوتك ، إذ هو الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، ولا يخيب رجاء من أمّله إذا رجاه ، ورحمته واسعة ، وأياديه متتابعة ، ولطفه عميم ، وإحسانه قديم ، وهو بمن رجاه كريم>.

آداب الصداقة

اعلم أيدك الله تعالى للعمل، أنه متى ما أردت الصداقة ، فليكن قصدك خاليا من الأغراض الدنيوية .. بل اجعله لله وفي الله ، كما تواترت الأخبار في ذلك بالتواتر المعنوي ، وإلا فإن المؤاخاة في غير الله تعالى مصيرها اليأس والندم .

ولهذا لا بد من أن نذكر الصفات التي لا بد من توفّرها فيمن ينبغي صداقته ، إذ لا يصلح كل واحد لأن يكون أخا في الله ..فقد قال النبي (ص): المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل . المستدرك ..8/327

الاول :أن يكون عاقلاً ، وذلك بأن يعلم حدود الأمور على ما هي عليها – ولو بالتعلم من الغير – فإنه لا خير في مصاحبة الأحمق .. فمن البداهة بمكان ، أن الأحمق يريد أن ينفعك – بزعمه – فيضرك في دينك أو دنياك ، نتيجة لجهله وقلة التفاته .

الثاني :أن يكون حسن الخلق.. فلا يكفي مطلق العقل رادعا ، إذ قد تستولي عليه قوة الشهوة والغضب ، فيعمل خلاف مدركاته العقلية ولو من غير عمد ، فيقع في المفاسد العظيمة .

الثالث :أن يكون من أهل التقوى والصلاح .. فإن الفاسق الذي لا يتقى غضب الله جل جلاله ، كيف لا يخالفك عندما توصيه بالحق ؟.. فهو يدور مدار هواه ، ويتلون بألوان شتى بحسب اختلاف أغراضه ، والذي يشهد على هذا المدعى قوله تعالى : { فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا } . النجم/29 ..
ومن آثار معاشرة الفاسق ، صيرورة المعاصي هينة في نظر من يصاحبه ، أجارنا الله تعالى من ذلك .

الرابع :أن لا يكون من أهل البدع ، إذ يُخاف من سريان البدعة إلى من يعاشره.. إضافة الى شمول اللعنة المتوجهة إلى مُجالسي أهل البدع كما روي عن الصادق (ع) : لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم، فتصيروا عند الناس كواحد منهم . الكافي 375/2 .. وهذا خطر عظيم .
الخامس: أن لا يكون حريصاً على الدنيا ، فإن مجالسته كالسم القاتل الذي يسري بمقتضى طبيعة الأشياء .

ولعل إلى جميع ما ذكر يشير قول مولانا الصادق عليه السلام :
إحذر أن تؤاخي من أرادك لطمع أو خوف أو أكل أو شرب ، واطلب مؤاخاة الأتقياء ولو في ظلمات الأرض ، وإن أفنيت عمرك في طلبهم ، فإن الله لم يخلق بعد النبيين على وجه الأرض أفضل منهم ، وما أنعم الله على العبد بمثل ما أنعم الله به من التوفيق لصحبتهم . البحار 71 /282 ، قال الله تعالى :
}الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين}. القصص/19 ..
فلو رأيت صديقاً متصفاً بهذه الصفات الحميدة ، فعليك أن لا تجهل قدره ، لئلا تُبتلى بفقده .

وأما حقوق الصديق عليك فهي :
اولا: الحقوق المالية : ولذلك مراتب :

فالمرتبة الأولى – وهي أدنى المراتب – : أن تجعل أخاك بمثابة الخادم الذي لو احتاج إلى مال قدمته له قبل السؤال ، وإلا كنت مقصرا في حقه .

والمرتبة الثانية : وهي أن تجعله بمنزلة نفسك ، فيكون شريكاً في مالك بالسوية .

والمرتبة الثالثة : وهي أن تؤثره بما لديك ولو كنت محتاجاً إلى ما تؤثره به عليه.. ومن المعلوم أن أعلى درجات الإيثار هو الإيثار بالنفس ، كما فعله أمير المؤمنين (ع) ليلة المبيت .

وقد روي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال : لعشرون درهماً أعطيها أخي في الله ، أحب إليّ من مائة درهم أتصدق بها على المساكين .

ثانيا :الحقوق البدنية وهي أن تسعى في قضاء حوائجه بميل ورغبة ، كما تسعى لقضاء حوائج نفسك بل أبلغ من ذلك ، وذلك قبل السؤال ، بلا منّة واستعلاء .

ثالثا:الحقوق اللسانية وهي على أقسام :

الاول : :أن تسكت عن عيوبه – سواء في حضوره أو في غيبته – فتتجاهله في أول أمره ، ثم ترفع عنه ذلك العيب برفق ولين ، مستعملاً أسلوب التدرج في الموعظة ، بحيث ينصرف عن ذلك العيب بنفسه ، ولا يبقى لديه ميل نفسي إليه .

وعليك أن لا تكشف له سرا حتى لأخص أصدقائه ، فإن ذلك من علامات لؤم الطبيعة وخبث الباطن ، بل من الجهل والحماقة بمكان .. فقد روي عن علي (ع) : قلب الأحمق في فيه ، ولسان العاقل في قلبه. البحار 159/1

وعليك أن لا تقدح فيه وفي أولاده وأصدقائه ، بل ينبغي عدم نقل قدح الآخرين في حقه ، فإن ذلك من موجبات الأذى والجفاء .. بينما يحسن نقلك لمدح الآخرين له .
وعليك أن تسكت عن كل مكروه في طبعه ، إلا إذا أذن الشارع في ذكره.. فعليك بإظهار ذلك المكروه ، لأن ذلك إحسان إليه ولو تأذّى منه .

وهنا ينبغي أن يقال : إن مما يعين الإنسان على عدم إفشائه لمعائب الآخرين ، هو الالتفات إلى عيوب نفسه وصعوبة إزالتها .. وعندئذ يقيس غيره على نفسه .
ولو فرض أن هناك صديقٌ مُبرأٌ من كل عيب ، فتلك جوهرة في خزانة السلطان محفوظة لديه ، لا تنالها أيدي عامة خلقه ..

فلنطلب ذلك الصديق الذي تغلب محاسنه على مساوئه ، لتكون تلك المحاسن باعثاً للشوق إلى التأسي بها .. أما الخوض في المساوئ فهو من عادة المنافقين .
وهذا الذي قلناه كله ، إنما هو في حفظ اللسان ، وأما حفظ القلب عن مساوئ الصديق فتلك وظيفة أخرى ، يقتضيها الحمل على الأحسن ، وذلك بالتحاشي عن سوء الظن به.. ولو لم يجد أي محملٍ حَسَنٍ لفعْله ، فعندئذ يحمله على السهو والنسيان ..
أما حمل الفعل على الفساد ، وما يلازمه من كشف أسرار العباد ، فهو مقتضى الحركة الناشئة من الحقد والحسد الباطنيين لامتلاء باطنه منهما ، فإذا سنحت الفرصة رشح الباطن إلى الظاهر .

الثاني : **:**ترك المجادلة لأن الجدال طريق إلى إثارة نائرة الفتنة .. إضافة إلى مفاسد أخرى مترتبة عليه ، ذكرها الشهيد رحمه الله في آداب المتعلمين .

الثالث : **:**إظهار حبك له ما أمكنك ذلك ، فإنه من أسباب تثبيت الاخوة .. كما يحسن بك أن تُفشي محامده في حضوره وفي غيبته ، مع أن الروايات نهت عن المدح في حضور الممدوح ، ولكن يحسن ذلك – في بعض الموارد - جلباً للمودة ، فالروايات محفوفة بقرائن تقيّد إطلاقاتها والله العالم .

الرابع : **:**الشكر على النعم الصادرة من ذلك الصديق .

الخامس : **:**تعليمه ما جهله من علم ، مع مراعاة آداب التعليم ، ومن تلك الآداب أن لا ينتقص علماً يجهله .. فلا يحقّ للفقيه أن ينتقص الحكمة بدعوى أنها مشحونة بالشبّهات الباطلة.. كما لا يحقّ للحكيم أن ينتقص الفقه بدعوى أن فتاوى الحيض والنفاس لا ترتبط بالمعرفة الإلهية ..فلكل علم نفعه في دائرته الخاصة به ، إلا إذا ورد نهيٌ من الشارع عن تعلم ذلك العلم .
وليحرص على أن يكون تعليمه له – فيما إذا رأى فيه طلبا لذلك العلم – في خفية عن أعين الجاهلين ، لئلا يلتفت الناس إلى جهله فتنتابه حالة من الخجل والاستحياء.. فالفارق بين الفضيحة والنصحية ، إنما هو في الإسرار والإعلان .

واذا رأيت أنه يخفى عليك عيبه ، فلا تسع أنت لإظهاره .. وإذا رأيت فيه طبيعة غالبة بما لا يمكنه ترك تلك الطبيعة فالسكوت عنه أولى.. وإذا رأيت فيه تقصيراً في حقوقك عليه ، فعليك بالتحمل والتجاهل.. وإذا رأيت أن التقصير قد بلغ حداً يوجب قطع علقة الاخوة ، فعليك بالعتاب الجميل في الخفاء مستعملا لغة الكناية ، فإنها أبلغ من التصريح ، فإن النبي الاكرم (ص) إذا رأى تقصيراً في أمته كان يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. الكافي 64/1

والحاصل أن التحمل مهما أمكن أولى .. فإن الله تعالى أخفى رضاه في جفاء المخلوقين .
هذا كله إذا لم يكن العيب فيه ، من قبيل الإصرار على المعاصي ، وإلا فقد قيل : انه يجب قطعه ، وذلك لأن الحبّ والبغض بينهما إنما كان لله تعالى ، والمُسبَّب يزول بزوال سببه ..

ولكن هناك من يذهب إلى عدم القطع أيضاً ، لأن طبيعة العباد تستقيم تارة وتعوجّ أخرى ، وهو في حال اعوجاجه أحوج ما يكون إليك ، آخذا بيده ، مستنقذا إياه من مهاوى الرذيلة والهلاك ، وعندئذ تحوز أجر من أحيا نفساً .. فإن إحساسه بذلة الوقوف بين يدي الله تعالى – متأثراً بصحبتك – أمر عظيم .
واعلم أن آية {يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم ناراً} . التحريم/6 .. تجرى في مثل هذه الموارد لتحقق درجة من درجات القرابة، فإنّ لُحمة الصداقة كلُحمة النسب لقول الصادق) ع :(
مودة يوم صلة ، ومودة شهر قرابة ، ومودة سنة رحم ماسة ، من قطعها قطعه الله .

فمن مجموع ما ذكر عُلم : أن مؤاخاة الفاسق أمر مرجوح ابتداء ، ولكنه راجح استدامة ، فهو من قبيل الطلاق بعد الزواج .. إذ أن ترك الزواج قد يكون راجحاً في أوله ، إلا أنه ينقلب إلى مرجوح بعد تحققه ..
وكتطبيق على لزوم تحمل الصديق لو تنزّل إلى هذه الرتبة ، ما نقل من أنه ابتُلى أحدهم بمرض العشق فقال لأخيه: أنت

في حلٍّ من عقد الاخوة لما أنا فيه .
فما كان منه إلا أن ترك الطعام والشراب ملتجأ الى الله تعالى ، متضرعا إليه في خلاص صاحبه من هذه البلية..
فاستُجيب له بعد أربعينيات عديدة .

السادس : **:**الدعاء والزيارة والقيام بما أمكن من القربات نيابة عنه ، سواء كان ذلك في حياته أو بعد مماته.. فإن أثر ذلك عائد إليه ، كما ورد عن النبي (ص) – فيمن دعا لأخيه – أن المَلَك يقول له : ولك مثلُ ذلك. الوسائل 109/7 ..

السابع : **:**الوفاء بعد الوفاة ، وذلك بالقيام بحوائج أهله وعياله واخوانه .. فقد كان رسول الله (ص) يكرم عجوزة كانت تأتيه أيام خديجة. شرح النهج 108/18 ..
وليعلم أن من آثار الوفاء أيضا : أنه لو ارتفع شأنه في نفسه ، وعظُمت منزلته بين الخلق ، فإنه لا يترك سبيل التواضع مع صديقه في كل أحواله ..
ومن آثاره أيضاً الجزع على فراقه .. فهذا الإمام السبط الحسن المجتبى (ع) كان يبكي عند الوفاة : لفراق الأحبة وهول المطَّلَع. الوسائل 11/ص131 ..

الثامن : **:**أن لا يوقعه في الكلفة مهما أمكنه ذلك .. بل يكون القصد من محبته هو التبرك بدعائه ، والاستئناس من لقائه ، والاستعانة به على دينه ، والتقرب إليه تعالى بتحمل أعبائه وقضاء حوائجه ، وأمثال ذلك من الأمور المستحسنة شرعاً .

ومن هنا قيل: أنه إذا وقعت الكلفة بطلت الإلفة .. فتلخص من مجموع هذه الكلمات أن الرجل كل الرجل : من غلب حياؤه شهوته ، ورأفته حسده ، وعفوه انتقامه..

آداب السلوك مع المرأة

وأما السلوك مع المرأة فعليك أن تتحمل الأذى منها بكظم الغيظ ، والعفو عند صدور الخطيئة .. وعليك أن ترد الجفاء بالوفاء ، والإساءة بالإحسان ، وأن تدفع اللجاجة والجهل بحسن الخلق ..

ومع ذلك كله لا تبّرئ نفسك من أي عيبٍ أو تقصيرٍ ولو كان أصل الحق في جانبك ، فإن لك السلطنة عليها ، وما هي

إلا كالأسيرة بين يديك ، والأسير أولى بالمراعاة وأحق بالإحسان من الغير ، فيجب عليك بذل النفقة والكسوة اللائقة بحالها على ما بُيّن في الكتب الفقهية ..
كما أن عليك أن تكرمَها وتعزّزها عند أهلك وعشيرتك .

وإياك أن تعمل بما يرفع سلطانك عليها ، فتفقد سيطرتك في الأمور كلها .. وقد أوصى أمير المؤمنين (ع) قائلاً :
وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك من الرجال ، فافعل .. فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة . شرح النهج 121/16 ..

وقد روي عن النبي (ص) أنه قال : سعد غيور ، وأنا أغير من سعد، والله تعالى أغير مني ، ومن غيرته حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . الطرائف 223/1 ..
فالمؤمن غيور ولكن لا ينبغي أن يُعملَ غيرتَه في غير رضا مولاه كالجلوس مع المحارم ..

وأما من حيث آداب المعاشرة فإن خير الأمور أوسطها ، فإنه وإن ورد النهي عن معاشرة النساء إلا أن للزوجة حقوقا لا ينبغي تجاوزها .
والحاصل أن تعامله مع الأولاد والنساء والأصدقاء وسائر المؤمنين ، ينبغي أن يكون كتعامل الطبيب المشفق ، فيراعي في معاملته لهم ما هو الأصلح لدينهم ودنياهم .

آداب تربية الأولاد

اعلم إن من نعم الله تعالى عليك نعمة الأولاد والذرية الصالحة .. وهذه نعمة وأمانة من الله تعالى متوجهة إليك وقد جعلك وليّا عليها ، فعليك أن ترعاها حق رعايتها ، وإلا كان لصاحبها الحق في مؤاخذتك على تضييع أمانته ، كما أن له إكرامك لو رددت أمانته إليه كما أرادها منك . فإذا رأيت حياء في وَلدك ، فاعلم أن ذلك علامة من علامات العقل ، فابذل جهدك في تربيته ، لئلا تكون مقصراً في تضييع فطرته ، فإن نفس الطفل خالية من أي نقش ، ولا رأي ولا عزيمة له في شيء .

وإليك بيان ما يجب عليك تجاه الأبناء :

أولاً : الترغيب في الآداب الشرعية ، وما تقتضيه السنة النبوية .

ثانيا :مدح الصالحين عنده ، بل ومدحه على أفعاله الحسنة، وذمّه عند صدور أدنى قبيح منه ، لئلا يعاود الذنب مرة أخرى .

ثالثا :منعه من الإسراف في الماكل والمشرب بل في مطلق اللذائذ .. فعليك أن تفهمه أن الغرض من الطعام هو كسب القوة لا اللذة ، فإن الغذاء كالدواء جُعل لدفع ألم الجوع ، ومنع الأسقام.. فالمطلوب هنا تحقير أمر التلذذ بالطعام عنده ، ومن المناسب – في هذا المجال – تعويده على صنف واحد منه وأفضله اللحم.. ومنعه من الأطعمة المتنوعة ، فإنها تورث المرض والكسل .

رابعا :تشجيعه على الإيثار في المأكل وغيره من مباهج الزينة في الحياة .

خامسا :النهي عن معاشرة من هم على خلاف أسلوبك في تربيته ، وإذا رأيت فيه مخالفة لأمرك ، فإياك وإياك والتوبيخ والتقريع ، وخصوصاً إذا رأيت مخالفته لك في السر لا في العلن .!

سادسا :تعليمه محاسن كلام أهل البيت (ع (والشعر الهادف ، وتحذيره من الشعر الذي يولّد فيه الهوى والعشق ، فإنها مفسدةٌ للأحداث .

سابعا :تعليمه الآداب الواردة في الطعام مما ذكره الفقهاء العظام في كتبهم الفقهية : كعدم التعجيل في الأكل ، وعدم النظر في وجوه الآكلين ، والأكل مما يليه ، وتصغير اللقمة ، وجودة المضغ ، وغيرها من الآداب المذكورة في محلها .

ثامنا :تعليمه آداب النوم ، ومنعه من النوم في النهار ، لئلا يصير بليد الفهم ، وكذلك منعه من النوم بين الطلوعين ، ليكون مؤثراً في تحسين لونه ، وتعديل مزاجه ، وتقوية ذكائه ، وزيادة رزقه .

تاسعا :تعويده على شيء من الخشونة في المعيشة ، ليشتد صلبه ويقوى عوده .

عاشرا :تعويده على إكرام الغير كبيراً كان أو صغيراً .. ومراعاة أدب المجالس كعدم القهقهة ، والتثاوب ، والتربع ، والهذر ، والابتداء بالكلام قبل السؤال وغير ذلك .

الحادي عشر :تعويده على الصدق والصمت ، و ترك الوعود الكاذبة ، وعدم الحلف كاذباً أو صادقاً ، وتجنب خبث القول والسب واللعن واللغو والتغني ، بل تعويده على حسن القول وجميله .

الثاني عشر :تعويده على أن يخدم نفسه بنفسه ، وأن يخدم معلمه ومن هو أكبر منه سناً ، وتحذيره من إيذاء الغير ، بل أمره بالرفق والمداراة.. ومنعه من قبول الأموال ، لئلا يتعود على الطمع في الدرهم والدينار ، ضرورة أن حب الذهب

والفضة من السموم المهلكة .

الثالث عشر :أن يأذن له في اللعب الذي لا ضرر فيه ، ليستريح من تعب التأديب ، فلا ينبغي أن يتوقع من الصغير ما يتوقعه من الكبير الذي حنّكته التجارب .

الرابع عشر :مراعاة الآداب الشرعية الواردة من الختان ، والعقيقة ، والتوسعة في الإنفاق وغير ذلك.

آداب الزيارة

إذا أردت أن تقصد ولياً من أولياء الله (ع) فاعلم أن هذه الذوات الطاهرة – عندما تفارق أبدانها وتتصل بعالم القدس والمجردات – فإنها تقوى إحاطةً بهذا العالم السفلي ، وتزداد قوّة في التصرف بهذه النشأة ، ويشتد علماً بأحوال الزائرين . فهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله .
فنسيم ألطافهم ورشحات أنوارهم ، تصل إلى قاصديهم خصوصاً للمخلصين منهم ، فيحسن عند الزيارة تجديد العهد بهم ، وإعلاء كلمتهم ارغاماً لأنف أعدائهم.. ومن ثم طلب شفاعتهم لغفران الذنوب ، والوصول إلى الفيض الأعظم ، وذلك بمراعاة الآداب الواردة في كتب المزار .

واعلم أنهم (ع) مطلعون على حركاتك وسكناتك ، بل على خواطرك .. ولهذا ينبغي دخول مشاهدهم الشريفة بكامل الخضوع والانكسار، واستجماع المتفرق من الأفكار ، فإن تشتت الخواطر عندهم بمثابة استدبارهم .

وعليك أن تتحرز في مشاهدهم عن اللغو ، فضلاً على الغيبة أو استماعها ، وكذلك الكذب وسائر المعاصي .. ومن آداب الحضور خفض الصوت ، عملا بقوله تعالى : { لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي } . الحجرات/2 .. فإن هذا جارٍ عند الأئمة (ع) جميعاً ، وخصوصاً عند أمير المؤمنين (ع) فإنه كنفس الرسول (ص .(
وعليك بعرض إيمانك عليهم ، ليكون ذلك أمانة لديهم تستوفيها منهم عند شديد الحاجة إلى ذلك ، فلا يكون للشيطان سبيلٌ عليك عند الممات .

وعليك باستذكار مصائبهم – وخصوصاً عند سيد الشهداء (ع) – فتذكّرها واحدة بعد أخرى مع البكاء أو التباكي عندها . يا حبذا تلك التوبة الجامعة النصوحة إلى الله في تلك المشاهد ، تشفعاً بذلك الولي ، وتعاهداً مع الرب في عدم العودة إلى المعاصي، بل عدم العودة إلى كل لغو وباطل .. إذ لا بد من وجود فرق بين حال الزائر قبل الزيارة وبعدها .

إن على الزائر أن يتحمل الصعاب في سبيل زيارتهم ، وخصوصاً عند الخوف من الأعداء فقد ورد عنهم (ع :(
ألا تحبّون أن تخافوا فينا؟ ..

كما ينبغي عدم الاستعجال في العودة من مشاهدهم الشريفة ، بدعوى الشغل في الوطن ، وخوف نفاذ المال ، وذهاب الرفقة وما شابه ذلك ، فإن ذلك كله من تسويلات الشيطان ، للحرمان من بركات الزيارة خصوصاً في مثل ليالي الجمعة .

فمن أين له اليقين بتوفيق العودة إلى تلك المشاهد الشريفة ؟.. وقد جرت العادة على أن الزائر في المشاهد، يتوقع التوفيق للزيارة مرة بعد أخرى ، ولكن أنّى له ذلك ، وهذا مما قد جرّب ..!

بقي القول في أنه ما دام الزائر في المشهد، فهل ترجح الزيارة المتكررة صباحاً ومساءً ؟ .!
وقد أجاب البعض بحسن تكرار الزيارة ، والحق هو التفصيل لا القول المطلق ، والمختار في ذلك :
أن الزيارة – بشرائطها المقررة – في غاية المطلوبية ، وأما من دون تحقق تلك الشرائط ففيه أيضاً تفصيل .. والمقام لا يسع ذلك ، والله العالم الصواب.

آداب الحج

اعلم أيها الطالب للوصول الى بيت الله الحرام ، إن لله عز وجل بيوتا مختلفة ، فمنها هذه الكعبة الظاهرية ، ومنها بيت المقدس ، ومنها البيت المعمور ، ومنها العرش إلى أن يصل الأمر إلى البيت الحقيقي وهو قلب المؤمن ، الذي هو أعظم من كل هذه البيوت ، ولا شك أن لكل بيتٍ من تلك البيوت مراسم وآداب ، فالمهم أن نعرض هنا آداب زيارة الكعبة الظاهرية – غير ما ذكر في المناسك – وقد نشير إجمالاً إلى آداب الكعبة الحقيقية ، فنقول :

اعلم أن الغرض من تشريع الحج ، هو استيعاب هذه الحقيقة وهي أن الهدف من خلق الإنسان هو معرفة الله ، والوصول إلى حبّه ، والانس به ، ولا يمكن حصول هذين الأمرين إلا بتصفية القلب ، وهي بدورها لا تتم إلا بكفّ النفس عن الشهوات والانقطاع عن الدنيا الدنية ، وإيقاعها في المشاق من العبادات الظاهرية والباطنية ، ولهذا لم يجعل الشارع

العبادات على نسق واحد بل جعلها مختلفة متنوعة .. إذ أن بكل عبادة من هذه العبادات تزول رذيلة من الرذائل .. فبالصدقات والحقوق المالية ينقطع الميل إلى الحطام الدنيوي .. وبالصوم تنقطع الشهوات النفسانية .. وبالصلاة يتم النهي عن الفحشاء والمنكر ، وهكذا سائر العبادات ..

أما الحج فهو مَجمعٌ لهذه العناوين المتكثرة ، إذ أنه مشتملٌ على مشاق العبادات التي تفي كل واحدة منها بإزالة رذيلة من هذه الرذائل مثل : إنفاق المال الكثير ، والانقطاع عن الأهل والأولاد والوطن، ومعاشرة النفوس الشريرة ، وطي المنازل البعيدة ، مع الابتلاء بالعطش في الحر الشديد ، والقيام بأعمال غير مأنوسة لا يقبلها الطبع الأولي من الرمي ، والطواف ، والسعي ، والإحرام وغير ذلك .

كما أن في الحج فائدةً أخرى وهي تذكّر أحوال الآخرة ، برؤية أصناف الخلق في صعيد واحد ، على نهج واحد لا سيما في الإحرام والوقوفين ، وكذلك الوصول إلى محل الوحي ونزول الملائكة على الأنبياء ، من لدن آدم إلى النبي الخاتم (ص) ، والتشرف بموضع أقدامهم الطاهرة ، كل ذلك إلى جانب التشرف بالحرم الإلهي الموجب لرقة القلب ، والمورث لصفاء النفس .

إن على العبد أن يعلم أن الإسلام – كما ورد – قد استبدل الرهبانية بالجهاد والحج .. وهو لا يصل إلى هذه الكرامة الا بملاحظة آداب ومراسم وهي :

الأولى : أن يجعل العبد عباداته كلها بنية صادقة ، قاصداً امتثال أمر المولى فحسب ، ليتحقق بذلك تلك العبادة كما أرادها الله تعالى .. فعلى الحاج – قبل الحج – أن يراجع نيته ويجعلها خالصة لمن يهمّ بزيارته ، متحاشياً غير ذلك من المقاصد الباطلة : كطلب الجاه ، والتخلص من مذمّة الخلق بتفسيقهم له ، أو حتى الخوف من الفقر – كما ورد من أن تارك الحج يُخشى عليه من الفقر – أو السعي للتجارة والسياحة في البلاد .. فلو التفت الحاج إلى بطلان قصده ونيته ، لزمه إصلاح ذلك أولاً ، والالتفات إلى قبح الورود على ساحة مالك الملك والملكوت، بهذه الحالة من الانصراف إلى مثل تلك الأمور السخيفة .. وهذا مما يوجب الخجل والوجل ، لا العجب والغرور .

الثاني :أن يهيء نفسه للمجالسة الروحانية ، وذلك بالإتيان بتوبة جامعة كاملة بكل مقدماتها ، كرد الحقوق المالية : من الخمس والمظالم والكفارات .. أو غير المالية : كالاستحلال من الغيبة ، والإيذاء ، وهتك الأعراض ، وسائر الجنايات بالتفصيل الذي ذكر في محله.. وكذلك الاستحلال من والديه ومن هما مصدر وجوده .. ثم الوصية بمحضر الشهود من دون تضييق على الوصّي في كيفية صرف ثلث أمواله ، لئلا يوقع مسلماً في حرجٍ بعد وفاته.. وبعد هذا كله يوكل أمر أهله وعياله إلى الكفيل المتعال ، فإنه خير معين ونعم وكيل .

والحاصل أن على الحاج أن يقطع علائقه كلها ، ليتوجه بعد ذلك بكله إلى الله تعالى ، محتملا بل مفترضا عدم العود من سفره هذا إلى وطنه.. فيكون شأنه شأن من يحتمل الموت في كل لحظة من لحظات حياته .

الثالث :أن يتحاشى أسباب انشغال القلب في هذا السفر العظيم ، لئلا يذهل عن محبوبه في حركاته وسكناته ، سواء كان سبب ذلك الذهول شخصاً أو مالاً .. ومن هنا لزم عليه أن لا يصطحب في سفره من يشغله عن همّه الأوحد .. ولهذا

يحسن السفر مع من يغلب عليه الذكر ، ليكون مذكّراً له في هذا السفر الإلهي ، كلما غلب عليه الذهول عن الحق .

الرابع :السعي في أن تكون نفقة الحج من المال الحلال .. وأن يوسّع على نفسه وغيره في هذا الطريق ، إذ أن درهما يُنفقه في الحج – كما ورد - بسبعين درهما.. فهذا الإمام السجاد (ع) – وهو أزهد الزاهدين – كان يأخذ معه ما لذّ من الطعام ..

ومما يترتب على هذه المشاعر ، أنه لو فقد الحاج متاعاً في طريقه ، أو سُرق منه شيء ، فإنه لا يغتم لذلك ، بل يدخل عليه الفرح والسرور، إذ قد عُوّضَ بما فَقَده أضعافاً مضاعفة في الديوان الأعلى ، عند أكرم الأكرمين .
فلو أن عبداً تحمل الأذى في زيارة سلطان من سلاطين الدنيا ، لتدارك له ذلك السلطان ما فات منه بما أمكنه ، ولا سيما إذا دعاه لزيارته ، فكيف ظنك بأقدر القادرين وأكرم الأكرمين؟ ..!
حاشاً وكلاّ أن يقل كرم المولى الأعظم ، عن كرم أهل البادية الذين نعهد فيهم ذلك .. نعوذ بالله تعالى من سوء الظن به .

الخامس :أن يُحسّن خُلقه مع رفقته حتى المكاري الذي يسوق دابته .. ويتجنب الفحش من القول ، فإن حسْن الخلق لا ينحصر في كفّ الأذى عن الغير ، بل في تحمل الأذى منه ، بل في خفض الجناح لمن يؤذيه .

السادس :أن يسعى في قضاء حوائج من معه من المؤمنين ، وتعليمهم أحكام الشريعة ، والدعوة إلى المذهب الحق ، وتعظيم الشعائر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

السابع :الابتعاد عن موجبات التجّمل والتكبر ، إذ أن ما أمر به هودخول الحرم الإلهي بذلّة وهو أشعث أغبر.. كما ورد في المناسك في باب الإحرام .

الثامن :أن لا يتحرك من منزلة إلا وقد فوّض أمر نفسه وأهله ورفقته وما معه إلى الله تعالى ، وأودع كل ذلك أمانة لدى الحفيظ العليم ..وهكذا يخرج من منزلة متوكلاً عليه ، متبرأً من حوله وقوّته ، فإنه – جلت عظمته - نعم الحفيظ ، ونعم المولى ونعم النصير .
وهناك آداب آخرى مذكورة في المناسك ، يحسن الالتزام بها ومنها الصدقة ، فإنه يشتري بها سلامة سفره .

وبعد ذلك كله ، يتأمل في حقيقة أن هذا السفر هو السفر الجسمي إلى الله تعالى ، وهناك سفر آخر روحي يتمثل في الالتفات إلى أنه لم يأت إلى هذه الدنيا للاستمتاع بملذاتها ، بل خُلِق لمعرفة ربه وتكميل نفسه ، ثم العمل بمقتضى هذا الإلتفات .

.واخيراً نقول : كما أن لسفر الحج زاد ، وراحلة ، ورفيق ، وأمير حج ، ودليل ، فكذلك السفر الروحي، فإنه يحتاج إلى مثل هذه الأمور .. فأما راحلته فهو بدنه ، فلا بد من رعايته باعتدال ، فلا يُرخى له العنان ليستولي على صاحبه ، ولا يضيّق عليه ليقعُد به الضعف عن المسير ، بل خير الأمور أوسطها .
وأما زاده فأعماله الخارجية التي يُعبّر عنها بالتقوى ، وهي في درجتها النازلة تستلزم العمل بالواجبات وترك المحرمات ، والإتيان بالمستحبات والاجتناب عن المكروهات ، وأما درجتها العالية فهو الاجتناب عما سوى الله تعالى، وبينهما

متوسطات ينبغي الالتفات إليها .

فحاصل القول : ان كلاّ من فعل الواجبات وترك المحرمات ، بمثابة الزاد في كل منزل من منازل الآخرة .. ولو حُرم مثلُ هذا الزاد ، وقع في المهالك العظيمة ، نستجير بالله من هذه البلوى .. وأما الرفقة فهم المؤمنون الذين معه في الطريق إلى الله تعالى ، وإليه يشير قوله تعالى :
}تعاونوا على البر والتقوى . {المائدة /2 .. فباتحاد القلوب ووحدة الهمم ، تطير القلوب إلى المنازل البعيدة .

ومن دون هذا الاجتماع لا يتم المراد ، ومن هنا نهى الشارع عن الرهبانية في هذه الأمّة ، ولقد كان استاذنا – رضوان الله عليه – يقول : إن الأعمال الكبيرة تتم بالقلوب المتحدة ، لا بالقلوب المتفرقة .

وأما أمير الحج في هذا السفر فهم الأئمة الطاهرون (ع) ، فعليك التمسك بحبل ولائهم ليمكنك السفر الى حرم الله تعالى ، وإلا كنت نهباً لشياطين الجن والإنس في أول الطريق ، وهو ما نشاهده في أهل البادية عندما يفقدون أميرهم الذي يذبّ عنهم.. نعم من دخل الحرم كان آمناً ، ولكن هيهات من ورود الحرم من دون إعانة معين .

وأما الدليل في هذا السفر ، فالحق أن الأئمة المعصومين (ع) – وإن كانوا هم الأدلاء على الطريق – لكن لما نحن فيه من دناءة الرتبة وضعف القابلية لتلقي الفيض بلا واسطة ، لزم أن يكون في البين من هو من أهل المعرفة والعمل ، ليُهتدى به في الأمور الجزئية والكلية، فإنّ تلقّي الفيض الأعظم - من دون هذه الوسائط المستنيرة بنور الله – في غاية التعسّر .

وعلى أي حالٍ ، فإذا وصل الحاج إلى الميقات ، فلينزعْ ثيابه وليلبس ثوبي الإحرام ، وليكن قصده في ذلك خلعَ ثياب المعصية ، ولبسَ ثياب الطاعة والعبودية.. وليتذكر أنه كما دخل الحرم الإلهي عارياً عن متعارف الثياب ، فإنه كذلك يلقى ربه بعد موته عرياناً وحيداً .

وأما عند تنظيف بدنه ، فليستحضر لزوم تنظيف روحه من أدران المعاصي وأوساخها .. وأما عند عقد الإحرام فعليه أن ينوي عقد التوبة النصوحة ، فيحرّم على نفسه – بعزمٍ وإرادةٍ – كل ما حرّم الله تعالى عليه أثناء الحج وبعده .

وأما عند التلبية ، فعليه أن يلتفت إلى حقيقة ما يلبّي به ، فمن جهة يقصد الالتزام بكل طاعة لله عز وجل ، ومن جهة أخرى يعيش حالة الخائف المردد بين الرد والقبول ، فهذا إمامنا زين العابدين علي بن الحسين (ع) يُغمى عليه عند التلبية ، لخوفه من أن يقال له : لا لبيك ولا سعديك ، وليتذكّر في هذه الحالة أيضاً صفة أهل الحشر، الذين هم بين مقبول ومطرود و متحيّر .. وأما عند دخول الحرم فعليه أن يكون متردداً بين الخوف والرجاء ، كمن دخل حمى الملك وهو مقصّر في حق ذلك الملك .. وعليه أن يستحضر شرف البيت العظيم من ناحية ، وكرم صاحبه من ناحية أخرى ، إذ دعاه إلى ضيافته الخاصة وهو أكرم الأكرمين. واعلم أنه – عزّ اسمه – كان يحبّ أن يراك عند بيته ولو مرة واحدة .. وها قد وجدك عنده ، فسله ما تريد ، فإنه أجلّ من أن يردّك في حاجة ، وقد حللت في ساحة قدسه ، وهذا مما لا يُظن في حق أسخياء العرب ، فكيف بالجواد المطلق ؟ .!

أما إذا كان السائل جاهلاً بكيفية السؤال ، أو عاجزاً عن حفظ العطية والنوال ، فما هو تقصير الكريم المتعال ؟!إن الهمّ الأعظم لغالبية حجاج البيت الحرام ، هو إنهاء المناسك على سبيل الاستعجال ، للتفرغ بعدها لأمور الدنيا من البيع والشراء ، والمطلوب من الضيف في مثل هذه الأحوال ، أن يكون متوجها للمُضيف بكل وجوده ، مستعداً للعمل بمطلوبه .

فإذا صار الصيام – المندوب في الأصل - مذموماً من دون طلب ، فكيف بالمعاصي في محضر سلطانه وما هي إلا هتكٌ لعرضه ، إذ أن هتك حرمة السلطان إنما هي بمخالفة أمره ونهيه.. وهنا فلنتساءل : كم من حجاج بيت الله الحرام ، من لم يشتغل في حجّه بعشرات المعاصي من الكذب ، والغيبة ، والفحش ، والنميمة ، وتعطيل حقوق الغير وغير ذلك؟ ..!

وإذا همّ الحاج بالطواف ، فليستذكر هيبة المولى ولزوم الخشية منه ، وعليه أن يتشبّه بالملائكة الذين يطوفون حول عرش ربهم .

واعلم أن الطواف لا ينحصر بطواف الجسم حول البيت ، بل إن الطواف الحقيقي هو طواف القلب بذكر رب البيت ، وإنما فُرضت هذه الأعمال البدنية ، لتكون أمثلةً يُحتذى بها في جانب الأعمال القلبية .

وكما أن التشرّف بالكعبة الظاهرية لا يتم إلا بقطع العلائق عن الأهل والولد، فكذلك التشرّف بالكعبة الباطنية لا يتم إلا بقطع حجب العلائق كلها .. ويستحب إتيان المستجار والحطيم ، واستلام الحجر ، والتعلق بأستار الكعبة ، متشبّها بعبدٍ مقصّر في حق مولاه ، مقبّلاً أقدامه ، متشبّثاً بأذياله ، مناشداً إياه بأحب أحبته لديه ، إذ لا يجد ملجأً وموئلا سواه .. فيا ترى هل يترك مثلُ هذا العبد أذيال مولاه ، من دون أن يأخذ منه رقعة العتق والخلاص؟ ..!

وإذا أردت أن تسعى فاستشعر حالة العبد المتردد في فناء السلطان ، طامعاً في العطاء ، خائفا من الخيبة والخسران .

وإذا وقفت في عرفات وسمعت ضجيج الخلق بصنوف اللغات ، فتذكر عرصات القيامة وعظيم أهوالها ، وليغلب على ظنك قضاء جميع الحوائج ، فإنه موقف عظيم تمتد فيه الأيدي إلى ساحة الكريم ، وتنقطع القلوب إلى كرمه ، وتشرئب الأعناق إلى إحسانه، وتجرى الدموع خوفاً من هيبته ، فذلك اليوم يوم عطاء السلطان لعامة وفده ، وإلباس وليه الأعظم خِلَع الكرامة ، عجل الله تعالى فرجه وسهّل مخرجه .

وفي ذلك اليوم تصل الرحمة إلى منتهى مدارجها ، لتعم كافّة الخلق ، فقد ورد أن من أعظم الذنوب أن يقف الحاج بعرفات وهو يظن أنه لم يُغفر له ..
إذ كيف لا يُغفر لمن تعرّض لمغفرته في ذلك الموقف العظيم ، منقطعاً عن الأهل والمال والولد؟!.. فما هكذا الظن به ولا المعروف من فضله ..!

وإذا خرجت من عرفات ودخلت مزدلفة ، فتفأل خيراً بكون عودتك إلى الحرم ثانية علامة من علامات قبول الحج .. وإذا رميت الجمار فاعلم أن روح هذا العمل إنما هو رجمٌ للشيطان في باطنك ، فإن كنت كالخليل كنت كالخليل وإلا فلا ..!

وإذا أردت أن تودّع الحرم فكن كفاقد من يعزّ عليك فقدُه ، بحيث يُعلم ذلك من حالك ، فكن مشوش البال منكسر الفؤاد .. وليكن بناؤك على الرجوع في أول زمان ممكن .. فهكذا كان عزم إبراهيم الخليل (ع) لما ترك إسماعيل وهاجر .. وعليك بمراعاة أدب المضيف عند وداعه ، لئلا يحرمك العودة إلى بيته أبد الآبدين ، فإنه وإن كان سريعاً في رضاه ، إلا أنه ينبغي مراعاة الأدب بين يديه مهما أمكن .

واعلم أنه يحسن بالحاج في مكة المكرمة ، أن يتشرف بالبقاع التي تشرفت برسول الله (ص) كغار حراء – للاعتبار لا للتفرّج – ثم يتقرب إلى الله تعالى بركعتين ، كما يحسن به إطالة الوقوف في هذه المشاهد الشريفة ، وخاصة في حجّه الأول.. وإذا أمكنه دخول الكعبة دخلها مراعيا للآداب المأثورة فيها .

واعلم أنه يحسن بالحاج في مكة المكرمة ، أن يتشرف بالبقاع التي تشرفت برسول الله (ص) كغار حراء – للاعتبار لا للتفرّج – ثم يتقرب إلى الله تعالى بركعتين ، كما يحسن به إطالة الوقوف في هذه المشاهد الشريفة ، وخاصة في حجّه الأول.. وإذا أمكنه دخول الكعبة دخلها مراعيا للآداب المأثورة فيها.

في صفات العلماء

يحسن بنا أن نذكر لك بعض صفات علماء الآخرة الذين هم في مقابل علماء الدنيا ، لئلا يتوهم كل مدّعٍ أن له الحق في تربية النفوس ، وهي :

الأولى : الزهد في الدنيا بمعنى رفع العلقة القلبية عنها ، ولازمتها رفع العلقة الظاهرية.. لأن أقل مراتب العلم هو العلم بحقارة الدنيا وفنائها ، والعلم بجلالة الآخرة وبقائها ، وكذلك العلم بحقيقة أن الدنيا والآخرة ضرتان لا تجتمعان .. فلو لم يعرف الحقيقة الأولى فواحمقاه !.. وإن لم يعرف الحقيقة الثانية فوا كفراه!.. وإن لم يعرف الحقيقة الثالثة فوازندقتاه! .. وإذا عرف الحقائق الثلاثة ولكن لم يجد له سبيلا على نفسه ، فهو أسير شهواته ومثل هذه النفوس غير قابلة لأن تُعدّ في عداد العلماء .
ولنعم ما قال الشاعر :
وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف اذا الرعاء لها ذئاب

إن علامة هذه الملكة الشريفة هي : الاجتناب عن العلوم الدنيوية إلا بمقدار ما يتوقف عليه العلم الأخروى .

الثانية :الفرارمن الأمراء والحكام لا سيما السلاطين ، إذا كان التقرّب طلباً للجاه والمال .

نعم لو تمت الحجة فيما بينه وبين ربه ، واطمئن إلى أن هذه الخلطة والعشرة نافعة للدين ، ولإقامة الشرع المبين ، ومواجهة المبدعين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما كان عليه الأئمة الهادين (ع (فهذا من خير الأعمال .. لكن هذا لا يتيسر إلا لمن يطمئن بعدم تأثير تصرفات الحكام في سلوكه ، والروايات شاهدة بأعلى صوتها على ذلك.. وهذه هي سيرة العلماء الأبرار .

الثالثة :أن يوافق قولُـه عملَه فلقد روى عن الصادق (ع) في قوله تعالى : {إنما يخشى الله من عباده العلماء} . فاطر/28 ..يعني بالعلماء : من صدّق فعلُه قولَـه ، ومن لم يصدق فعلُه قولَه فليس بعالم .

الرابعة :أن يفرّ من الفتوى فراره من الأسد .. فلقد ورد أن أصحاب النبي (ص) كانوا لا يتقدمون في الجواب ، خوفاً من الوقوع في الخلاف .
وعليه أن يتحاشى الجدال والمناظرة ، لأن ذلك من أسباب الفتنة والخبائث ، كما تشهد به الأخبار .

الخامسة :أن يغلب عليه السكينة والحزن والوقار ، متجلياً فيه الخضـوع والخشوع ، بحيث يذكّر الله تعالى رؤيتُه ، ويشهد على علمِـه عملُه.. والشاهد على ذلك ما روى عن أمير المؤمنين (ع :(
إن العلم ذو فضائل كثيرة .. إلى آخره . الكافي 48/1 ..
فعليك بالتأمل فيها ليكون نافعا لك إن شاء الله تعالى .

السادسة :أن يهتم بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ، ومعرفة السلوك الأخروي .. فإن العلوم على قسمين: قسمٌ مدون في الكتب ، وقسمٌ منقوش في الصدور لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ .. وليُعلم أن الفيوضات الغيبية ، إنما هي من القسم الثاني وبها تنكشف المعارف الحقة ، ويتحقق بها أصل الإنسانية ، ويصل العالم بها إلى مرحلة الكمال .

السابعة :أن يستفرغ وسعه في فهم الآيات والروايات ليكون ما فهمه - بنفسه - هو الحجة ما بينه وبين ربه ، لا تقليداً لما هو المسموع من الأقوال أو المدون في الكتب.. فكلام الغير كفعله ليس حجة على أحد ، ضرورة أنه لا عبرة بكلام غير من عصمه الله من الزلل ، ولعل إلى جملة ما ذُكر أشار النبي (ص) بعد تلاوته قوله تعالى :
}فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام { . الأنعام/125.. عندما سئل عن شرح الصدر قائلاً: التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله . البحار ..65/236

فإن قلت أنك غير عامل بما تقول!.. قلت : نعم ، حقٌّ وصدقٌ .. أعاذنا الله من شر النفس وجمامها ، ووفقنا لما فيه خيرها وصلاحها ، لأن الحق مرّ والثبات عليه أمرّ ، وطريق تحصيله صعب وتلقيه أصعب ، فالنفوس تميل إلى ما هو في العمل أسهل ، والأبدان تنزع إلى ما هو للطبع أميل .
وبهذا تعرف - بقرينة المقابلة - وصف علماء السوء .. كما تعرف صفة الذين نصبوا أنفسهم في مقام الهداية والإرشاد .

أصناف المغرورين

اعلم أن فرق المغترين كلها غير محصورة ، وجهات الغرورأيضاً مختلفة.. ومعنى الغرور هو : خطأ النفس في الحكم ، فترى الشر خيرا ، والخير شراً ، كل ذلك بداعي الهوى .. وأصحاب الغرور والهوى على أقسام :
فمنهم الكفار الذين باعوا آجل الآخرة بعاجل الدنيا ، لنقص يقينهم بالله ورسوله .. وإن مما يثير العجب أنهم يرجعون إلى الخبير بالشيء عند جهلهم به كأربـاب الصناعات ، ولو أنهم رجعوا إلى الأنبياء - وهم الخبراء بمصالح العباد - لخرجوا من كفرهم.. ومما أوقعهم في الوهم أيضاً ما يرونه من ابتلاء المؤمنين بالفقر تارة ، وبأنواع من البلاء تارة أخرى ، والحال أن غيرهم من الكفار والفسّاق متنعمون متلذذون في دنياهم ، ومن هنا يصيبهم الغرور بأن ما أُعطوا إنما هو لكرامتهم وهوان غيرهم.. كذبوا والله العظيم !.. فإن ترادف النعم الدنيوية ليس دليلاً على القرب ، فلم يكن إقبال الدنيا على فراعنة العصور دليلاً على قربهم من الله تعالى ، بل كانت الدنيا سبب هلاكهم وبُعدهم عن الله جلّ جلاله .

ومن هنا كان أطباء النفوس يحذّرون أتباعهم من لذائذ الدنيا ، كالوالد البار الذي يحمي ولده عند المرض عن ضار الطعام ولو كان لذيذاً .. كلّ ذلك حبّا له وشفقه عليه .

وعليه فلو كان للمولى عبدان: عبدٌ أوكله المولى إلى نفسه ، وعبدٌ كلّفه بشاق الأعمال لتحصيل الصحة والكمال ، فيا ترى أيهما أحب إلى مولاه ؟ ..!

واعلم أن السلف الصالح كانوا يحزنون من إقبال الدنيا عليهم ويقولون : ذنب عجلت عقوبته ، ويفرحون بإدبارها عنهم ويقولون : مرحباً بشعار الصالحين .. والمغرور على العكس يظن الأول كرامة والثاني إهانة ، وإليه يشير قوله عز من قائل :
}أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون سنستدرجهم من حيث لا يعلمون { . المؤمنون/56.. { فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون { .. الأنعام/44

ومنهم الفسقة من اهل الحق الذين غرّهم حلم رب العالمين وعفوه وفضله تارة ، وغلبة الرجاء عليهم تارة أخرى .. ومنهم من غرّه انتسابه إلى رسول الله (ص) غافلين جميعاً عن أن الرجاء بلا عمل غلط محض ، إذ لو كان الرجاء كافياً لما أتعب المعصومون (ع) أبدانهم الطاهرة في صنوف الطاعات ، حارمين أنفسهم لذة الراحة ، مشتغلين في الليل والنهار بالابتهال والتضرع .
ولا يخفى عليك أن أقوالهم (ع) وإن كانت تقبل التأويل إلا أن أفعالهم ليست كذلك ، فافهم واغتنم .
واما المغرورين بالنسب ، فعليهم الالتفات إلى أن الركون إلى محض النسب يخالف قوله تعالى : { فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} . المؤمنون/101 .. وكذلك قوله تعالى :
}ولا تزر وازرة وزر أخرى }. فاطر /18.. فإن من يرى خلاص نفسه بخلاص غيره ، شأنه شأن من يرى أنه يشبع بشبع غيره، أو أنه يزداد علماً بعلم غيره وإن لم يتعب نفسه بالاكتساب .. هيهات هيهات!.. فالتقوى واجبة على كل فرد وجوباً عينياً ، ولا يجزي والد عن ولده ، بل يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه ، والشفاعة لا تكون إلا مع حصول شروطها ، فهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى .

ومن أصناف المغرورين العلماء ، سواء كان غرورهم من جهة العلم أو من جهة العمل .
فاما من الجهة الأولى فطوائف وفرق :

ففرقة اكتفت بالجدل وإظهار الفضل في المجالس من دون أن تستضئ بنور العلم ولا بنور العمل ، فمثلها كمثل خيط في مهب الرياح تسوقه حيثما تريد.. وهؤلاء يُعلم مآلهم بالتأمل في حالهم .

وفرقة توغلت في بعض العلوم الأدبية ، بتصور أنها من المقدمات الشرعية.. فصرفوا جلّ وقتهم في تحصيل تلك العلوم ، والحال أنهم جاهلون بما خُلقوا لأجله .

وفرقة انشغلت بعلوم الفقة وما يستلزمه من الأصول ، غافلين عن أن الفقة مقدمة للعمل ، والعمل مقدمة لتهذيب الأخلاق، والتهذيب مقدمة للتوحيد ..وبذلك تكون قد وقفت على المرحلة الاولى ، فلم يبق لديهم وقتٌ لطي باقي المراحل ، إلا أن يقال : أنها ستُطوى لهم في عالم البرزخ ، وإلا فلا مجال لذلك ..!

وفرقة تعمقت في مختلف العلوم ، إلا أنها أهملت القوة العملية ، وأعرضت عن تزكية النفس .

وفرقة عملت بالواضحات الأخلاقية والسمعية ، ولكنها أهملت المكنونات القلبية والأمور الغامضة الخفية ، فتراه يتكبّر بدعوى إعزاز الدين ، ويرائي بدعوى إرشاد الجاهلين ، وكل هذا تغريرٌ لنفسه ، والله تعالى مطلع على سريرته .. فتراه يخوض في أموال اليتامى والفقراء والمساكين ، ويصرفها في شهواته ، وفيمن يختلف إليه من الأنصار والمريدين ، ظناً منه أنه يستحق بذلك جزيل الأجر والمثوبة بإعانة الفقراء ، وتخليص الأغنياء من اشتغال الذمة ، وترويج العلم بإعانة الطلبة والله العالم بالضمائر .

وفرقة أخرى من الوعاظ المتكلفين لشريف الملكات ، والداعين إلى الفضائل والمكرمات ، والمحذّرين من الخبائث والشبهات ، ولكنهم غارقون في المذموم من الصفات ، متوهمون أن معرفة اصطلاحات العارفين ونقل أقوالهم ، يُدخلهم في زمرة السالكين إلى الله تعالى ، وإن مجرد دعوتهم للخلق إلى الله تعالى يوجب لهم الجزاء الأوفى من رب العالمين . وكأنّ هؤلاء لم يسمعوا كلام ربهم الموجب للحسرة والندامة يوم القيامة : {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر

مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} . الصف/3 .. ولم يسمعوا الحديث القدسي القائل: عظ نفسك ثم عظ الناس وإلا فاستح مني .

واعلم أن مِنْ هؤلاء مَنْ يتقن صناعة الألفاظ ، ويُكثر من التشبيهات والإستعارات ، ويلفّق الآيات مع الروايات جذباً لقلوب العوام ، معتمداً على ما هو الخارج عن الشرع والعقل ، من الحكايات العجيبة والقصص الغريبة ، حرصاً منه على حصول وقْع كلماته ومقالته في الصدور .. بل ينقل الشبهات التي لا يستوعبها العوام ، ليوجب زيادة في انحرافهم وجرأتهم على المعاصي من دون أن يشعر بذلك ، إن هؤلاء لا يمكن أن يكونوا هداةً للخلق ، فإنّ ضررهم أبقى وأدوم ، وفسادهم أكثر وأعظم بل هم أضلّ الناس ، وأخزى من الخناس .

وفرقة أخرى اشتغلت بتهذيب الباطن وتصفيته من لوث الكدورات ، وقطع النفس عن الشواغل والعلائق الدنيوية ، وقطعت طمعها من الخلق واتصلت بالخالق ، ودعتْها شفقتها على العباد إلى دعوتهم إلى طريق الهدى والسداد ، إلا أن الشيطان وجد بُغيته فيهم بدعواته الخفية ، فيبدأ أحدهم بالتصنع في الألفاظ والعبارات والحركات ، فيرى إقبالاً من الخلق باذلين له الأنفس والأموال ، فعندئذ تغلب عليه لذة الشهوات ، فيرجع إليها بعدما تركها ، اطمئنانا إلى أنه لا سبيل للشيطان عليه.. والحال أنه لو كان سالكاً طريق النجاة لما أمِنَ كيد الشيطان في حالٍ من الأحوال ، بل كان مواظباً على التضرع والابتهال ، ومستعيناً في دفعه بالكريم المتعال ، وخائفاً على نفسه من خطر سوء الخاتمة نعوذ بالله تعالى من ذلك .

وقد قيل أنه ظهر الشيطان لوليٍّ من الأولياء - بقي من عمره ساعة واحدة - فسأله الشيطان عن خوف ذلك الولي من كيده ، فأجابه : بأنه لا يأمن كيده حتى في تلك الساعة .!

وفرقة أخرى من الصوفية يتظاهرون بترك الدنيا ، والحال أنه لو أقبل عليهم شيءٌ منها بغتة لماتوا فرحا بها ، أنّى لهم وترك الدنيا !.. ولو سلّمنا أنهم تاركون للدنيا حقيقة ، فإن هذا المقدار لا يكفي للتقرب إلى الله تعالى ، بل لا بد من تحصيل عقائد أهل الإيمان ، وعدم ترك شعار الإسلام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والسعي في الرزق ، وعدم القاء الكَلّ على الناس .

وفرقة أخرى تسمّت باسم العارفين ، واكتفت من العرفان بخفض الصوف ، وطأطأة الرأس ، والتشبّه بالباكين وخاصة إذا سمعت شيئاً في العشق والحب والتوحيد ، مع عدم معرفتهم لمعانيها .. بل تجاوز بعضهم الحد بالشهيق والنهيق واختراع الأذكار ، والتغني بالأشعار ، ثم الحركات الشنيعة بدعوى الوجد ، ظانين أنهم يتقربون إلى الله بذلك ، والحال أنهم يتعرضون لسخطه ومقته .

وفرقة تعدّت هذه المقامات ، وانسلخت عن قيود الشريعة مرتكبين الحرام والمشتبهات ، تاركين المستحبات والواجبات ، بدعوى أن الله تبارك وتعالى غنيّ عن الطاعات ، وأن المناط هو عمل القلب فلا داعي للعمل بالجوارح ، إذ أن الواصل الواله المستغرق في مشاهدة المحبوب ، مستغن عن مثل ذلك .

فعند ذلك يخوض في الشهوات الدنيوية ، زعما منه أنها لا تصد عن المعارف الحقيقة مع قوة النفوس وثبات الأقدام ، وأن الذي يحتاج إلى رياضة البدن إنما هو من عوام الناس ، وأن السالك طريق المجاهدة والعمل بالشريعة إنما هو من المبتدئين !

فنقول في ردهم : إن الأمر لو كان كذلك ، فلِمَ كان أئمة الهدى (ع) - وهم المقصودون في خلق السماوات والأرض - يلتجأون إلى الله تعالى بالتضرع والبكاء ، لاشتغالهم بالمباحات من الأكل والشرب وغيره ، لئلا يكون ذلك مانعاً من الدرجات العلى في جوار رب العالمين؟!.. فهذه الفرقة من أضعف الناس عقلاً ، وهم أشد جهلاً وحمقاً .

وآخر قد غرق في الأوهام البعيدة ، مدعياً أنه قد وصل إلى أعلى درجات المقربين ، وأنه في رتبة مشاهدة المعبود ، ومجاورة المحمود ، والملازمة في عين الشهود ، ملفّقاً الكلمات الباطلة ، متوهماً أنه اطلع على الملك والملكوت ، وحلّ بساحة القدس والجبروت ، وعندئذ ينظر بعين التحقير والإزدراء إلى العلماء والصالحين والفقهاء ، مدعياً لنفسه من خوارق العادات ما لم يدّع لنفسه أحدٌ من الأنبياء والأولياء ، والحال أنه لم يؤذن في التصرف في طبائع الأشياء لكل من أراد ذلك ، بل إن ذلك خاص بالأنبياء ولمن أراد الله تعالى له ذلك ، ولا يستفاد أكثر من ذلك في الاخبار .

ومن أدلة جهلهم أنهم يرتكبون شنائع الأفعال ، بدعوى قهر النفس وإزالة ملكاتها الرذيلة ، والحال أن عملهم هذا لهو من ذمائم الصفات ، وهل يُدفع الرذيلة بالرذيلة ، والذميمة بالذميمة؟ ..!

وهل خلت الشريعة من الرياضات الحقة : كقيام الليل ، وصوم النهار ، والأسفار العبادية وغيره ، لتصل النوبة إلى الرياضات المخترعة ؟ .!

وفرقة اشتغلت بالرياضات الشرعية الصحيحة ، وقطعت بعض المراحل السلوكية ، وظهرت بعض العلامات الحقيقية إلا أنها أيضاً وقعت في الخلط والاشتباه ، لعظمة الأمر ، ظناً منهم الوصول إلى الله جل جلاله ، والسر في ذلك الاشتباه أن لله تعالى سبعين حجاباً من نور ، ولا يصل السالك إلى واحد منه إلا وهو يظن أنه لا مجال للتعدي عنه .

وليُعلم هنا أن من جملة الحجب هو حجاب القلب عندما يتنور بالنور ، فيظهر القلب لصاحبه بعد أن كان محجوباً ، ولذا تقول في الدعاء :
إلهي قلبي محجوب وعقلي مغلوب .

فإذا تنور القلب ورأى صاحبه أنه صار جميلاً ، فحينئذٍ تصيبه الدهشة وربما يسبق إلى لسانه كلمة أنا الحق أو ليس في جبتي سوى الله ، أو إني كعبة ألا طوفوا حولي ، ونحو هذه من الخرافات ، فإذا لم يخرج من هذه الحجابية بقي في الضلالة أبد الآباد.. ومن هنا أيضاً قالت النصارى في المسيح ما قالوا .

وكيف كان ، فهذا من مزال أقدام السالكين .. ولقد كان أستاذنا يوصي دائماً تلاميذه محذّراً إياهم من الخلط والاشتباه قائلاً :

)يستحيل أن يكون الممكن واجباً والله الهادي).. ومن هنا يُعلم معنى : والمخلِصون على خطر عظيم .

واعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني إلا بالتضرع التام ، وبصدق الإنابة إلى الله تعالى والإخبات له ، ومعرفة عيوب نفسك ، تلك العيوب التي لا توافق العلم والعقل ، ولا يقره الدين والشريعة ، وسنن القدوة من أئمة الهدى سلام الله عليهم أجمعين

المراسلة الاولى للشيخ البهاري

إن ما يجب عليك أن تتأمل فيه هو : أنك حرٌّ أم عبد ، فإن كنت حراً فاعمل ما تشاء ، وإن كنت عبداً معترفا بمولاك ، فعليك أن تستعدّ للجواب يوم ينادي} : وقفوهم إنهم مسؤلون} . الصافات/24 ، ولو كان السؤال عن تحريك جارحة من جوارحك ..! وعليه فلا بد من أن يكون سعيك في تحصيل رضا المولى وإن لم يرضَ عنك الآخرون ، ومن الواضح أن رضاه لا يتحصل إلا بتقواه .
واعلم أن الغرض الأصلي من الخلق ، لا يتم إلا بتحقق علاقة الحب والمعرفة بين العبد ومولاه ، وموجبهما هي التقوى وتحصيلها يحتاج الى أمور :

الأول : اجتناب المعاصي ، وذلك بمعرفتها بتفاصيلها ومنها ترك الواجبات ، وهو يستلزم أيضا معرفتها بتفاصيلها بمقدار

وسعه فيما يُبتلى به .
فإن قلت : كيف لي بترك المعصية رأساً ، فإن العبد في معرض الابتلاء بالمعصية دائماً ؟.. قلت: نعم ، ولكن يمكنك التوبة بعد كل معصية فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، فإن من قتل سبعين نبياً يمكن أن تُقبل توبتُه ، والمولى الحليم قادر على أن يُرضي الخصماء بما شاء ، وذلك من معدن جوده وكرمه .

الثاني :اجتناب المكروهات والعمل بالمستحبات بما أمكن ، ولا ينبغي التذرّع بالقول أن كل مكروه جائز ، إذ لعل ترك مكروه واحد أو العمل بمستحب كذلك يقع موقعاً بليغاً عند المولى فيقرّبك إليه زلفى .. وهذا ما نلاحظه في العرف أيضاً ، إذ قد يسدي أحدهم إليك معروفاً يقع منك موقعا لا تنساه أبد الآباد .

الثالث :ترك المباحات الزائدة عن مقدار الضرورة .. فإن الشارع المقدس وإن أباح الكثير من المباحات لأهل الدنيا إلا أنه – يريد في الباطن – أن لا ينشغل العبد بغيره ، ولذا يحسن بالعبد اجتناب هذه الزخارف – وإن لم تكن حراماً – عملاً بميل مولاه واقتداء بالمعصومين (ع).

الرابع :إخراج ما سوى الله تعالى من قلبه ، إذ القلب حرم الله فلا تُسكن حرم الله غير الله . البحار ..67/25 فإن قلت : كيف يتيسر لي ذلك مع الانشغال بالأهل والعيال فهو كالمحال عرفاً ؟!.. قلت : إن من ينبغي الاجتناب عنه هو من يصدّك عن ذكر الله تعالى ، وحينئذ ينبغي التعامل معه بالمقدار الواجب، وأما من يذكرك بالله تعالى رؤيته فلا منع عن مجالسته ، بل قد ورد الأمر به كما روي عن المسيح عيسى (ع) . المستدرك 203/12 ..

والحاصل أن على طالب الكمال أن يقطع أنسه بما سوى الله تعالى واحداً تلو الآخر ، إلى أن يصل إلى مرحلة الذكر الدائم ، وهي مرحلة لا تنافى معاشرة الصالحين بمقدارٍ ينتفع بتلك المعاشرة ، لأن محبتهم والأنس بهم فرعٌ لمحبة الله تعالى .

فإن قلت : إن هذا كله حقٌّ ، ولكن كيف لي بتحقيق هذه المرحلة من الانقطاع ، والحال أن شياطين الجن والإنس يحيطون ببني آدم ، بالوساوس تارة ، وبالتدخل والمنع تارة أخرى ، أضف إلى اختلال أمر المعاش عند الوصول إلى هذه الدرجات؟..فأين نحن وهذه الدرجات العليا من الكمال ؟ .

قلت : إننا لو أُمرنا بهذه الدرجات دفعة واحدة لكان الأمر كما قلت ، فيكون كالجبل الذي يراد نقله من مكانه دفعة واحدة.. ولكن من منن الله تعالى علينا أننا لم نُؤمر بالمشاق من الأعمال ، فإن أوامر المولى الحكيم مبنيّة على التدرّج والاستطاعة .. فإذا لاحظت تدريجية المراحل ارتفعت الإشكالات كلها.. فترويض النفس كترويض الحيوان المتوحش الذي يُروّض تدريجياً ، ليتحول إلى حيوان أليف .

فاغتنم في كل مرحلة ما أُعطيت من الحول والقوة في تلك المرحلة ، فإنك إذا عملت بما علمت ، أُعطيت قوّة مرحلة أخرى بمقتضى الحديث القدسي الوارد :
من تقرّب إليَّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً .البحار 189/84.. وأما مع التقصير والتواني ، فقد تسلب منك قوة المرحلة الأولى

أيضا .

فمثلاً لو فاتك شرف قيام الليل ، فإياك أن تفوّت على نفسك فرصة الاستيقاظ بين الطلوعين ، فهذا فيض مستقل يغاير الفيض الفائت ، ولا تلتفت إلى تسويل الشيطان الذي يدعوك لتضييع فرصة لاحقة استمراراً لضياع فرصة سابقة .
وكذلك لو تورّطت في مجلس لغوٍ أو غيبة ، ورأيت قساوة قي قلبك ، فبادر إلى قطع ذلك المجلس بأية حيلة يمكنك الاعتذار بها ، ولا تلتفت إلى من يقول :
)أنا الغريق فما خوفي من البلل (ليوقعك في المزيد من الحرمان .
وعليه فعليك بما أوصيك به :

استفرغ وسعك في أن لا تضيّع فرصة من حياتك ، واجعل لكل عملٍ وقتا لا يتجاوزه إلى غيره ..
و قسّم أوقات عمرك إلى أوقات عبادة ومعاشرة واستجمام ..
ولا تُشغل نفسك في حاضرك بما سيستقبلك من الأمور ..

اجعل نومك في أول الليل لئلا يفوتك قيام آخره ، متأثراً بما اشتغلت به من لغوٍ في أول الليل .. ثم نم متذكراً متطهراً تالياً للأدعية المأثورة، وخاصة تسبيحات الزهراء (ع) مهيئاً أسباب اليقظة لقيامك في الليل ..
وإياك أن تُجْنب نفسك ببطن ممتلىء .!.

وابدأ صلاة الليل بسجدة الشكر ، ثم التأمل في السماء والتدبر في قوله تعالى :
}إن في خلق السموات والأرض.... إنك لا تخلف الميعاد {.. آل عمران/194.. ثم تطهر وتعطّر واستاك ، ثم اجلس على مصلاك تالياً لدعاء : إلهي غارت نجوم سماواتك.... البحار 81/46

ثم ابدأ بنافلة الليل مراعياً ما بقي من الوقت ، كما ذكرها الفقهاء ، ومنهم : الشيخ بهاء الدين العاملي في مفتاح الفلاح ، والشيخ في المصباح ..

وابقَ مستيقظا ذاكراً لله تعالى إلى طلوع الشمس ، ولا تقم بأي عملٍ في هذا الوقت غير قراءة الأوراد والأذكار المشروعة ، وأما إذا سنحت لك الأفكار والخواطر الرحمانية ، فاستغرق في متابعتها بدلاً عن تلك الأوراد والتعقيبات ..

واختر من بين الأعمال العبادية أشدها تأثيراً على نفسك ، فهو المقدم من بين تلك الأعمال ، سواء كانت تلاوةً لكتاب ربك ، أو مناجاة بين يديه ، أو قياما لصلاة ، أو تذللاً في سجود .

وبعد ذلك تبدأ بأداء حق المخلوقين كالأهل ، فتجالسهم بمقدار ما تلزمه المعاشرة بالمعروف ، ثم تتوجه إلى عملك مشتغلاً بالأذكار المأثورة كأدعية الدخول في الأسواق.. ثم ابدأ بعرض ما لديك من متاع ، متذكراً الله عز وجل ، فإنه بمثابة النور في ظلمات الحياة ومنها الأسواق.. واحرص على أن لا تتدخل في شؤن الخلق إلا بما يقتضيه التكليف ، كالنهى عن المنكر وبالطريقة التي أمر بها الشارع ، من الحكمة والموعظة الحسنة فيما لو احتملت التأثير وإلا فلا تكليف في البين ..

وعليك أن لا تغفل عن قراءة سورة القدر بعد العصر عشر مرات ، مع الاستغفار المأثور ..

واحرص على أن تكون على طهارة دائمة ، صائماً ما أمكنك ذلك وخاصة في الأيام الثلاثة من كل شهر ، بشرط موافقة المزاج ، وإلا فإن مراعاة المزاج أولى ، إذ البدن مركوب العبد لا ينبغي أن يُنقص من حظه فيكلّ ويملّ ، ولا يعطيه أكثر من حقه فيطغى ويزل ، وخير الأمورأوسطها وهذه قاعدة في كل الأمور وقد قيل : (عليكم بالحسنة بين السيئتين .(

ويحسن بك في أية ساعة من ليل أو نهار ، القيام بسجدة طويلة تُكثر فيها من قول : (سبحان ربي الأعلى وبحمده) وليكن سعيك في استحضار قلبك عند كل ذكر ووِرْد ، مقترنا بالمداومة ليتحول عملُك إلى مَلَكة وعادة .

)حرره محمد البهاري الهمداني (

المراسلة الثانية للشيخ البهاري

لقد آن لك الأوان لأن تخرج من سجن الظلمات إلى رحاب النور ، ولكن بشروط :

الأول : أن لا تطمع في شيء حتى في راحة نفسك ، وأن لا يكون لك هدف إلا إصلاح عباد الله تعالى ولو بتحمل الأذى منهم ..
وأما لو كان القصد من السعي هو المال والجاه ، فإنك لن تصل إلى السعادة أبداً ، ومن الممكن أن تحصل لك هذه الملكة ، لو جعلت الموت نصب عينك دائما وأبداً .

الثاني :أن لا تستعجل في أمر من الأمور ، بل عليك بالتأمل في النفس واستشارة الغير ، فإن العجول يقع في المهالك من حيث لا يشعر .

الثالث :أن تجعل قوة الغضب عندك مقهورة بالعقل ، ضرورة أن غبار الغضب يستر وجه العقل ويحجبه عن الحق ..

ولهذا يحسن بك في هذه الحالة عدم مواجهة الآخرين – ولو بداعي الموعظة – إلى أن تسكن ثائرة الغضب .

الرابع :أن تكون كتوماً للأسرار ، أعني ذلك الأمر الذي لو ذكرته لكان إما : لغواً ، أو موجباً لفساد العقيدة ولو في المآل ، وهذا يختلف بحسب اختلاف الأشخاص والبلاد .

الخامس :أن لا ترى نفسك ناصحاً مشفقاً ، بل تكون متهما لها في كل شيء ، وخاصة فيما تصرّ عليه نفسك .. فاعلم عندئذ أن هناك خيانة ومؤامرة في البين لا بد من إبطالها .

السادس :أن تكون ذا نظم في كل شؤونك وأوقاتك.. فقم بكل ما عليك في أوقاتها المناسبة ، لتجدخلوةً كافيةً مع نفسك .. فليس من السائغ أن تقوم بأي شيء في أي وقت .. فإن في ذلك مفسدةً كبرى لو التفتّ إليها .

السابع :أن لا تتكل في أمر من أمورك على حولك وقوتك، بل تكون متوكلاً في كل أمورك على الحي الذي لا يموت .

)حرره محمد البهاري الهمداني (

المراسلة الثالثة للشيخ البهاري

جعلك الله جل جلاله ، ممن تناله الرحمة من رأسه إلى قدمه .
وصلني كتابُك ، وكشف عن صحة مزاجك خطابُك ، وقد اشتكيتَ من سوء حالك ، وتفرق اخوانك ، وقلة أعوانك .. فأقول لك :

لا تخف ولا تحزن ، إن الله تبارك وتعالى نِعْمَ الرب ، وإن محمداً صلى الله عليه وآله نِعْمَ الرسول ، وإن علياً وأولاده نِعْمَ الأئمة .

واعلم أن العبد الضعيف لو توسل بذيل كرمهم لأوصلوه إلى حظيرة القدس ، يسوقونه إلى ذلك برفقٍ وحنان!.. فإن العادة الإلهية جرت – بكرمه – على أن لا يُترك الضعيف يكابد ضعفه ومسكنته ، ذلك الضعيف الذي استعان بالتوكل لدنياه ، وبالتقوى لأخراه ، واستصحب العفة ، واتخذ القناعة حرفة ، وزيّن فقره بصبره ، وغناه بشكره ، وأوجز في كلامه وطعامه ومنامه، ونسى حظ نفسه ، وحفظ سيئة أمسه ، وشاور اخوانه ، وداری أعوانه ، وكان في حوائجهم من الساعين ولهم من الداعين ، موظِّفاً وقته في طاعة رب العالمين ، غير مضيّع لصلاته خصوصا صلاة الليل ، آمراً نفسه بالمعروف بعد ما نهاها عن المنكر .

عليك أن لا تنظر إلى حسناتك ، فإن ما أنت فيه من أمر إنما هو من رشحات فضله ، وهو جلّ شأنه ولي التوفيق ..

جعل الله لك بعد العسر يسرا ، وبعدالذلّ عزّاً ، وبعد الفاقة غنى ، لعلك تكون من المفلحين إن شاء الله تعالى .

لا أدرى ما هو سبب تحيرك وتوانيك ؟!.. هل دخلتَ عليهم من باب الصدق ولم يأذنوا لك في الدخول؟.. أليس بابه مفتوح للطارقين وخيره مبذول للطالبين .
ألم تسمع النداء : من تقدم إلي شبراً أقدم عليه ذراعاً .. و لوعلم المدبرون كيف اشتياقي إليهم لماتوا شوقاً.. و إن الراحل إليك قريب المسافة .. و هو الذي يقبل التوبة عن عباده.. فلماذا اليأس إذن؟!.. هل كُلِّفتَ ما لا تطيقه؟!.. هل فضحوك على رؤوس الأشهاد ؟!.. هل سلبوا منك ما أعطوك؟ ..!

فتبصبص إليه جل جلاله تبصبص الجائع ، فلعله ينظر إليك نظرة رحمة ورضوان إن شاء الله تعالى.. ولا أدري ماذا أقول لك بعد ذلك كله؟.. فإن من كان صادقاً في عطشه يكفيه القليل من الماء .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

)حرره محمد البهاري الهمداني(

المراسلة الرابعة للشيخ البهاري

يا محمود الخصال وحسن الفعال.. إن لطالب المعرفة شروطاً لا بد من مراعاتها :

الأول : أن يكون صحيح المزاج .. وعليه فلا بد من علاج مناشئ الداء في بدنه ، إذ لو غلب عليه الطبع السوداوي مال إلى العشق فيوقعه في الغرور .. ولو غلب عليه الطبع الصفراوي مال إلى القلق و سوء الخلق .. ولو غلب عليه البلغم ابتلى بقصور الفهم لدقائق الأمور .

الثاني :أن يكون متأدّباً بآداب الشرع وتاركاً للمعاصي متألماً من ارتكابها ، وأن يكون عفيفاً صدوقاً مُعرضاً عن الفسق والفجور والغدر والخيانة والمكر والحيلة ، فإن جميع السجايا الأخلاقية مقدمةٌ للمعارف بعد الفقه ..
ولا ينبغي ترك أي ركن من أركان الشريعة والاكتفاء بتأويلاتها ، فتارك الصلاة بل تارك النوافل ، لا حق له في أن يتكلم حول شيء في المعرفة الإلهية .

الثالث :أن يكون فارغ البال من أمر المعاش إما : بالاستغناء المالي ، أو بالقناعة والتوكل .

الرابع :أن يكون معظّماً للعلم والعلماء .

الخامس :أن يكون حزيناً ، بأن يجعل بشره في وجهه وحزنه في قلبه .

السادس :أن يكون كتوماً للأسرار .
إن كُشف له عن شيء منها .

)محمد البهاري الهمداني(

المراسلة الخامسة للشيخ البهاري

أيها العالم المجاهد !.. الذي اجتهد ليلاً ونهاراً حتى أدخل نفسه في زمرة العلماء الراشدين والفقهاء المجتهدين ، حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء ، تيقّظ من رقدتك ونومك ، كي ترى ما أشكل عليك في تحصيل شرائط العلم وآدابها ، وكيفية المواظبة عليها .
اعلم أنه قد ورد أن العلماء ورثة الأنبياء ، ولا شك ولا ريب في أن هذا الإرث ليس هو الدرهم والدينار ، بل المراد منه ما يكون من جهة تبليغ الأحكام ، وإرجاع العامة إلى الجادة المستقيمة ، وتثبيتهم عليها مهما أمكن ..
فعلى هذا لا بد للعالم من مراعاة أمور كي تتحقق فيه هذه الوراثة ، وأنّى لك مراعاتها ..!

فمنها :أن لا يكون حبيس داره ، مع ما يرى من مواظبة الناس على المنكرات الواضحة ، إن كان قادراً لدفعها مع اجتماع شرائطه .. فعليه أولا أن يبدأ بإصلاح نفسه ، وذلك بالمواظبة على فعل الطاعات وترك المحرمات ، ثم بتعليم أهله وأقاربه ثم جيرانه ثم أهل بلده ، ثم أهل القرى والبوادي وهكذا إلى أقصى العالم ، بمقدار ما يسعه ذلك ، ما لم يقم بهذا التكليف من به الكفاية ..

وليس هناك شيء - مما فُرض عيناً أو كفاية – أهم من ذلك ، فأين أنت أيها المداهن والمسامح من هذه الوظيفة؟ .!

وإياك وأن تخضم مال الله تعالى خضم الإبل نبتة الربيع ، لتأكل منه قسماً وتعطي قسما منه لأولادك .

واعلم أن على العالم ان يكون صابراً محتسباً ، كما كان السلف صابرين في جفاء المخلوقين .
وأن يكون ملجأ وملاذا للمسلمين حقيقة في حاجاتهم وابتلاءاتهم.. فإن حجة الإسلام ، هو ما كان قوله وفعله حجة على المسلمين ، وإلا كانت حجة خالية عن أي ملاك .

و منها :أن لا يكون له همّ وغرض في جميع حركاته وسكناته إلا هداية الخلق وسوقهم إلى الشريعة ، بأي سبب حصل ، وبأية حيلة تحققت ، وبأي فرد جرى على يده هذا الأمر ، صغيراً كان أو كبيراً ، وضيعاً كان أو شريفاً ، فلا يتبرّم إذا جرى الخير على يده في الباطن ونسب إلى غيره في الظاهر .

فهل كان يثقل على النبي (ص) أن يرى أعرابياً تجري الهداية على يده للناس جميعاً بسبب بعثته (ص (، وهو يعلم أن الغاية من بعثته حاصلة وإن كان على يد أعرابي؟!.. ولكن أقول لك بصدق :
إننا لا نستوعب هذه الحقيقة ، فضلاً عن العمل بها في محله ، هيهات هيهات ..!

و منها :أن يكون متواضعاً لله جل جلاله في ذاته ، من دون أن يكون ذلك لغرض من الأغراض ، كالطمع المركوز في النفوس أو غيره .. ومن المعلوم أنه لا يتحقق الشرف التام إلا بالتواضع في ذات الله جل جلاله ، وأما ما شاع في زماننا هذا ، من شدة الخضوع والتذلل للأغنياء وغيرهم من أهل الدنيا وتسميتها تواضعاً ، فهو تدليس ومكر وتلبيس وتملق وتذلل مذموم ، ولا يكون هذا إلا تفريطاً في فضيلة التواضع .

نعم ، للتواضع مراتب بالنسبة للمتواضَع له .. والعدل الحقيقي هو إعطاء كل ذي حق حقَّه ، فتواضع العالم للعالم يغاير تواضعه للسوقي ، وتفصيل ذلك موكول إلى محله .

و منها :أن لا يكون غافلاً عن مولاه في آن من الآنات ، بل يكون مراعيا لمراقبته ، كمراقبة الحكام لما يجري في عاصمة ملكهم !.. فعليه أن يعرض أعماله كلها على مولاه ، ليعلم القبول من الرد ، وبهذه المناسبة تأمل فيما قيل : من أن المفتي لا يستفتى إلا من الله تعالى .

و منها :أنه لا بد من أن يكون منصوراً بالرعب ، بعد قطع طمعه عن حكام الدنيا ، وتمكين الخوف الإلهي جلّت عظمته في مكنون سريرته .

)محمد البهاري الهمداني(

المراسلة السادسة للشيخ البهاري

رأيتك في ليلة من الليالي كسلاً فاترا ، ولم أعرف الحكمة في ذلك ؟ ..فلو كان فتورك للدنيا ، فاعلم أن العبد لا يأخذ أكثر من قوته المقدر له.. وإن كان للآخرة فاعلم أن الله تعالى يستقبل العبد الهارب بأول سعي منه إليه ، إذ أن الراحل إليه قريب المسافة .. أو ما سمعت قوله : لو علم المدبرون كيف اشتياقي إليهم لماتوا شوقاً .. فعجّل قبل فوات الأوان .

وإذا رأيت نفسك لا تُقبل على العبادة ، فالتجأ إليه بالتضرع والمسكنة ، فإن العطاء _ بلا حساب واستحقاق – إنما هو ديدنه وعادته .. فلا تلتفت إلى وسوسة الشيطان في أنه لا مجال للتوبة بعد تكرر المعصية ، فإنه جلّت عظمته توّاب غفور ، وأولياؤه أيضاً مأمورون بذلك .

وأما لو كان فتورك وضيقك لأجل فراق الاخوان ، نظراً إلى أن مودة سنة رحم ماسة ، وفرقتها نار موقدة ، وقد قال

الشاعر :

وجدت مصيبات الزمان جميعها

سوى فرقة الاحباب هينة الخطب

وقال آخر :

يقولون ان الموت صعب على الفتى

مفارقة الاحباب والله اصعب

فأقول لك : إن للكلام تفصيلاً وفروعاً.. والحق أنه لو كانت صداقة الانس هذه من موجبات الالتذاذ بالدنيا ، فلا معنى للضيق والفتور أبداً ، بل لا بد من الفرح والسرور لتخلّصك من هذه البلية ، وفقنا الله تعالى لنيل هذه المرتبة الجليلة .

وأما لو كانت أخوتك في الله تعالى فإن مفارقة الأنيس - وإن كانت موجبة للوحشة – إلا أن علاج الأمر ليس بالضيق والتبرم ، بل عليك بالإحسان إليه والقيام بحقوق اخوته ولو في غيابه ، فإن الاخوة عقد يجب الوفاء به ..

وليس القصد هنا التفصيل في بيان حقوق الاخوة ، بل على المؤمن أن يعين اخوانه على الثبات على لوازم الاخوة ليقطفوا جميعاً ثمارها ، وإن من ثمارها الخلاص مما يقع فيه كل واحد منهما من البلاء في أهوال الآخرة .

)محمد البهاري الهمداني (

المراسلة السابعة للشيخ البهاري

اخواني !.. كأني أراكم وأنتم على ما كنتم عليه .. إذ لا علم ولا عمل ولا ورع ولا تقوى .
ما هذا التواني في أمر الآخرة ، والتكاسل في طاعة الذوات الطاهرة؟.. أنسيتم الموت الذي لا بد منه ، وهو الهادم لأركان اللذات ، والمخرب لبنيان الغرائز ؟.. أليس ذكره يزهّدكم في الدنيا ويرغّبكم في الآخرة ؟ ..

أمَا قال أصدق الصادقين : إنّ مَن تَذّكره في اليوم والليلة عشرين مرة يحشر مع شهداء أُحد . المستدرك 104/2 ..

أما وجدتم ذكره في غاية النفع والتأثير؟ ..ولعل الذي منعكم من ذلك هو اشتغال القلب بما سواه ، وعدم التهيؤ لسفر الآخرة ، وإلا لا ريب في أن المسافر لا همّ له إلا الاستعداد له ، فمن تفكر في حال الفراعنة لا بد وأن يقلّ سروره بالدنيا وشهواتها ، وينكسر قلبه عن لذاتها ، فالعاقل من جرّد نفسه للمنية وهيأها للتنعم والتحية ، وإن شئت ذلك فتفكر في حال نظرائك الذين كانوا منهمكين في الشهوات بطول آمالهم ، كيف انتقلوا من أنس العشرة إلى وحشة الهجرة ، ومن فسح القصور إلى ضيق القبور ، ومن النظافة وحسن الصورة إلى قبح المنظر والسيرة ، واسأل عن قبره بلسان فصيح وقل : بالله يا قبر هل زالت محاسنه ----- وهل تغير ذاك المنظر النضر

وكيف كان ، فاغتنم يا حبيبي ما أقول لك : إن حالة الناس في ذكر الموت وحالاته على أقسام .. فهم بين منهمكٍ في الدنيا وشهواتها ، وخائضٍ في غمرات لذاتها ، وبين سالك مبتدئ ، وعارف واصل .

والاول :لا يذكر الموت إلا بذمّ ، لصده إياه عن محبوبه ، وكونه حاجباً له عن مطلوبه ، بل يفرّ منه ويعاديه وإن كان لزاماً أن يلاقيه ، فلا يستفيد من ذكره إلا بُعداً .

والثاني :يستعد بذكره لاقتناء الخيرات ، والمسارعة إلى تحصيل فضائل الملكات ، ويكرهه خوفاً من أن يلقاه قبل الوصول إلى هذه الكمالات ، وهو في هذا الحال معذور ، ولا يُعد من كلاب دار الغرور ، بل لا يُحسب من الذين كرهوا لقاء الله عزّ وجلّ فكره لقاءهم ، وعلامته الاشتغال بما يعده للممات ، والتهيؤ للزاد قبل الفوات .

واما الثالث - :وإن كان لا فائدة في ذكره – فهو إنما يذكره ويشتاق إليه حباً له وشوقاً منه إليه ، إذ فيه لقاء الحبيب ، ولذا قال سلام الله عليه : والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه . البحار 28/ص233 .. لما فيه من الخلاص من سجن الطبيعة ، والوصول إلى الدرجات العالية الرفيعة ، وإلى ذلك أشار بقوله سلام الله عليه : فزت ورب الكعبة . البحار ..42/239

وهناك قسم آخر أعلى : وأرفع مما ذكر ، إلا أنه لا مجال لذكره .

)محمد البهاري الهمداني(

المراسلة الثامنة للشيخ البهاري

روي عن مولانا أمير المؤمنين (ع : (من ابتُلى بالفقر فقد ابتُلى بأربع خصال : الضعف في يقينه ، والنقصان في عقله ، والرقة في دينه ، وقلة الحياء في وجهه. البحار 47/69 ..

أما إذا توجه الفقر لعبد من العباد ، فعليه الالتفات إلى الأمور التالية :

الاول :أن لا يكره الفقر فيما لو نزل به ، بل يقول : مرحباً بشعار الصالحين حيث أن العالم بالأصلح – جلت حكمته – قدّر ذلك الفقر له ، ولازم ذلك أنه – لو كان شاكياً – لا يشكو إلا إليه في ظلم الليالي .
فلو أظهر فقره لغيره كان ذلك كاشفاً عن عدم رضاه به ، فكانه يرى مصلحته في غير ذلك ، وخاصة فيما لو كان عند من لا تفيد الشكوى لديه .. فإن قلت :
إن هذه الشكوى هل هو كفر أو فسق أو مباح ؟.. قلت :

إن هذا إنما يكون بحسب الشاكي والمشتكى إليه .. وقد أوكلت الاجتهاد فيه إليك .

الثاني : :أن يقنع بالكفاف والاقتصاد على قدر الحاجة ، ويشكر ربه على أنه لم يُعط له الزيادة ، فإن الزيادة فتنة وامتحان لعبده ، لينظر ما يفعل بها ، فإن عصى الله بها عذّبه وإلا حاسبه ، نستجير بالله منه .

الثالث :أن يكون متوكلاً على مولاه ، آيساً مما في أيدي الناس ، وأن لا يتملق لغني أبداً بدعوى أن ذلك من التواضع ، فإن تواضع الفقير هو التكبر عليهم من حيث أنهم أغنياء .

الرابع :أن لا يداهنهم في خوضهم في الباطل طمعاً لما في أيديهم من حطام الدنيا ، فلا يدخل فيما يدخلون فيه ، ولا يتكلم بما يتكلمون به ، ولا يبرّر لهم ما يعملون .

الخامس :أن لا يكون الفقر من دواعي الوهن في العبادة ، بل يستغل الفقر المقدر له ليكون ادعى له للعمل بالطاعات ، إذ الوصول إلى السعادة الأبدية بالفقر أيسر وأسهل .

السادس :أن ينفق شيئاً من ماله فيما يرضي ربه ، فإنه أفضل عند الله تعالى من بذل الأغنياء من وجوه لا مجال لتفصيلها والله العالم .

السابع :أنّ ما يعطيه غيره من المال إن علم أنه حرام وجب عليه الامتناع .. وإنْ علم أنه مشتبه أو حلال فيه منّة رجح له ردّه .. وإن علم أنه هدية محللة بغير منّة ، استحب له القبول تأسياً بالنبي والأئمة عليهم السلام ، وإن كان من الصدقات وهو مستحق له ، فإن علم أنه يعطي رياء وسمعة ، فإنه يمكن أن يقال بعدم جواز الأخذ ، إذا صدق أنه أعانه على الإثم ، وينبغي له التعفف عن السؤال ما استطاع ، فإنه فقر معجّل وحساب طويل ، لعدم خلوه من الآفات غالباً ، إذ هو متضمن على الشكوى وذهاب ماء الوجه ، والذل عند غير الله تعالى ، وإيذاء المسؤول وإجباره على العطاء ، استحياء أو رياء ، أو يورث شتم السائل وإيذائه إلى غير ذلك من الآفات ..

ولذا روي أن مسألة الناس من الفواحش ، نعم لو كان في مقام الاضطرار فله ذلك بل قد يجب ، إلا أنّ تشخيص درجات هذه المقامات ، في غاية الاشكال والصعوبة .

)محمد البهاري الهمداني(

المراسلة التاسعة للشيخ البهاري

سألتني الموعظة ولكن لست أهلاً لها ، فقد قيل فاسألوا أهل الذكر ..

وإن كان لا بدّ من الموعظة فإني أقول لك : عليك بالتضرع في الخلوات ، ولو كنت متكلفاً فإنه سينتهي إلى الحقيقة في يوم من الأيام ، إذ أن الذي يطلب الحق بجدٍّ يصل إليه .. فلو قال لك مولاك :
أنه لا حاجة لنا في عبد مفلس مثلك!.. فقل له متذللاً :

إن الفقير الجالس على قارعة باب السلاطين ، لا يُعدُّ من عبيده ليحاسبه محاسبة العبيد .. فلو قال لك :
إلى متى وأنت تعيش عالم المعصية والمخالفة ؟.. فقل له :
لكل موجود شأن ، وأنا شأني العصيان .. فلو قال لك :
فمتى يظهر قهري عليك ؟.. فقل له : عندما أعارض سلطانك .. فلو قال لك : اخرج من مملكتي !.. فقل له :

لو طردتني من باب دخلت عليك من باب آخر !.. فلو قال لك :

لست قابلاً لشيء من الفيض ..! فقل له :

أنت وهاب القابلية للفيض .. وأخيراً لو عبس في وجهك ، وطردك قهراً من بابه ، فالتجأ إلى أمناء دولته .. فإن قال لك :

من أين تعلمت ذلك ؟.. فقل له : منك لا من سواك.!

المراسلة العاشرة للشيخ البهاري

إنك تعلم أن ما وقعت فيه من العشق إنما هو من جذبات المعشوق ، حيث أنه يجذب العاشق من حيث لا يشعر ولا يرجو ، وبما لا يخطر بباله أبداً.. ومع ذلك لا يظهر من تلك الجذبة أثر في العاشق ، إلا الخوف الممزوج باليأس ، مع دوام الطلب .

إن أول ما يبذل العاشق والطالب الصادق ، هو أنسه وراحته ، ثم ما يملكه وما يتعلق به ، حتى اختياره ، ثم يبذل روحه ويصل الى خدمة حبيبه ، مع خطر عظيم ، وهول جسيم .. فأنّى لك تحصيل هذه المراتب العالية المهولة الصعبة ، هيهات هيهات !!.. ولكن مع ذلك فإن التضرع بين يدي المحبوب ألذ من جميع الملذات ، فالمحبة سر من اسرار الله تعالى ، وجعل محلّه قلب العبد ، كيلا يلتفت إلى أحد غيره .

صحْ عند الناس أني والهٌ ــ غير أن لم يعلموا حبّي لمن

الوصية الأولى للسيد أحمد الموسوى الحائري لتلميذه

أرجو أن تكون ممن يواظب على فعل الطاعات ، وترك المحرمات بحذافيرها ، وذلك باتباع أسلوب التواصي مع النفس أول النهار ، ومراقبتها أثناء النهار ، ومحاسبتها عند النوم .. والتدارك بالمعاقبة بالضد عند المخالفة ، على التفصيل الموجود في كتب الأخلاق .

وليكن سعيك في أن تكون لك خلوة مع الله جل جلاله ، بالتضرع والتبتل والخضوع والخشوع ، واجعل ذلك في كل ليلة بين صلاة المغرب والعشاء ، أو بعد صلاة العشاء .. فتسجد السجدة المعهودة وتذكر الله تعالى بما ساعد عليه التوفيق ، بكمال الحضور والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه فإنه لا موجود حقيقة سواه .

وإذا عجزت عن الذكر فانشغل بالتفكير وسل نفسك : من أنا ؟.. وأين أنا ؟.. ومن أين ؟.. وإلى أين ؟.. وكن مستغرقاً في الغور في نفسك ، حتى كأنه لا أحد في عالم الوجود سواه .. وعندئذ سل الله تعالى أن يعرّفك نفسك ، فليست هناك مصيبة أشد من أن لا يعرف العبد نفسه .. وعليك بالتهجد في الأسحار ، والاشتغال بنافلة الليل مع كمال الإقبال ، ولا تغفل عن قراءة القرآن والتعقيب إلى طلوع الشمس ..

والزم الاستغفار سبعين مرة أو مئة مرة صباحاً ومساءً ، وكذلك التهليل مئة مرة .. ولا تغفل عن الأذكار المعهودة وهي :)سبحان الله العظيم وبحمده) و (أستغفر الله) وأقلها عشر مرات صباحاً ومساءً .. وكذلك (لا إله إلا الله وحده لا شريك..) و (ربي أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك يا رب أن يحضرون إنك أنت السميع العليم) و (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت ، ويميت ويحي وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ..)

وكذلك الاستغفار المنقول عن السيد ابن طاووس : (اللهم أنت ربي لا شريك لك ، أصبحنا وأصبح الملك لله) .

المستدرك ج381/5.. والصلوات الكبيرة : (اللهم صلّ على المصطفى محمد والمرتضى علي..) وقراءة القدر مئة مرة ، ليلة الجمعة وعصرها .

والأهم من ذلك كله ، أن تستحضر وجود مولاك ليلاً ونهاراً ، نوماً ويقظة ، في كل حركاتك وسكناتك ، بحيث لو أمكنك أن لا تغفل عنه طرفة عين لفعلتَ.. وابذل قصاري جهدك في التوجه والتوسل بصاحب الأمر (ع (، إذ هو الواسطة في الفيض في هذا العصر ، ولا تغفل عن دعاء : (اللهم عرّفني نفسك (بعد الفرائض مع إهداء سورة الإخلاص ثلاث مرات إلى ذلك الوجود المبارك.. وكذلك واظب على دعاء : (إلهي عظم البلاء ..(..

وليكن سعيك في الالتزام بدوام الطهارة ، وتسبيحات الزهراء (ع) قبل المنام ، وقراءة آية الكرسي بعد كل فريضة .. وكذلك سجدة الشكر بعد الاستيقاظ .. وقراءة آية { إن في خلق السموات والأرض ..}. آل عمران 190 – 194.. متدبراً في المضامين ، ومتأملاً في الكواكب والآفاق .. وتختمها بدعاء الصحيفة بعد صلاة الليل .

السيد أحمد الموسوى الحائري – شهر الصيام 1337هـ.

الوصية الثانية للسيد أحمد الموسوى الحائري لتلميذه

إن الطالب للقاء المولى ، عليه أن يحاسب نفسه عند النوم ، ليرى ما عمله في يقظته ، وليستحضر ما خالف فيه مولاه ، مع الندم والعزم على عدم العود ، بل التدارك في الاستقبال ..

وليعلم أن النوم أخو الموت ، إذ أن { الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها . {

ولذا يحسن عند النوم أن يجدد عهده بالشهادتين ، ويستقبل القبلة متطهّراً ، متذكراً وضع الميت في قبره ، ومنشغلاً بذكر ربه ، مراقباً رؤية الحق له ، إلى أن يستغرق في نومه .. وليعلم أنه – حين منامه – في قبضة الحق المتعال ، بحيث لو اراد المولى ان يبقيه عنده لتوفاه إليه ، لقوله تعالى : { فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمى } زمر/42 .

فكم من نائم لم يستيقظ من رقدته إلى يوم لقائه .. وعليه لا أمل في العودة إلى الدنيا إلا بتفضل جديد منه على عبده ، وكأنه استجاب له دعاءه بلسان حاله :

}رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت . {

ومن هنا لزم – عند الاستيقاظ – أن يتذكر نعمة عودة الروح إليه ثانية ، فهي بمنزلة حياة جديدة ، تستحق سجدة الشكر – كما كان يفعلها النبي (ص) عند استيقاظه – إذ أن الكثيرين طلبوا العودة إلى الدنيا ، فكان الجواب : { كلا إنها كلمة هو قائلها ..}
ومن هنا أيضا لزم أن يغتنم هذه الحياة الجديدة ، ويبذل قصارى همته في تجارة رابحة مع الله رب العالمين .

واعلم أن كل ما في الوجود سبيله الى الفناء والزوال .. فالممكن - بما هو ممكن – لا يجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضراً ، لأنه محتاج من جميع الجهات ، وفي قبضة قدرة الحق المتعال .. ومن هنا لا يستحق شيء في الوجود سواه أن يلتفت إليه العبد ولو كان كبيراً في نظره القاصر .. ولو طلب العاقل شيئاً من غير مولاه ضرورة ، فإنه يطلبه لا لذاته – لما قلنا من فنائه واضمحلاله – بل لأن المولى أمره بذلك ..

فتحصّل مما ذكر : أن من أقبح القبائح ، أن يصرف العبد همّته إلى شهوة بطنه وفرجه ، بل ينبغي له عدم الالتفات إلى ذلك بقلبه ، وأن أضطر إليها ببدنه ..
وليعلم أن خير ما يصلح للعبد ، هو تفويض الأمر إلى الحكيم الخبير ، وليكن بعدها فارغ البال من كل همّ وغمّ ، حتى همّ رزقه ومعاشه .. كما ينبغي أن يعلم أنه إنما يتوجه إلى المولى بقلبه ، ومن هنا كان التجلي الإلهي على القلب أيضاً ، إذ ما من شيء أشد استعداداً لظهور التجليات الإلهية من قلب المؤمن ..

وقد ورد أنه : لا يسعني أرضي ولا سمائي ، بل يسعني قلب عبدي المؤمن. عوالي اللئالئ ج4/ص7

وأفضل ما يلتفت إليه السالك بعد التوجّه إلى الحق ، هو التوجّه إلى النفس ومعرفة عيوبها.. إذ من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وقد قال الحكيم : { وفي أنفسكم أفلا تبصرون } .الذاريات /21 ..

وما قلته لك يكفيك إن كنت عاملاً به ، وإلا فلا داعي للعبث واللغو بإظهار ما لا يؤول إلى العمل .

السيد احمد الكربلائي

الوصية الثالثة للسيد أحمد الموسوى الحائري

إن السالك لو توقف عن الطلب بعد مرحلة اليقظة والاستبصار ، ورجع إلى ما كان عليه ، أو حاول أن يصل إلى الدنيا بسلوك طريق الآخرة ، فإنه سيكون أسوأ حالاً ممن لم يدخل الطريق من أول مرة ..
فهذا بمنزلة الكفر بعد الإيمان ، ومن موجبات الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة ..

وعليك بالإصرار والثبات في هذا السبيل ، فإن من دق باباً ولجّ ولجّ .. ولا ينتهي الأمر بالموت ، إذ الموت ليس خسارة للسالكين لقوله تعالى :
}ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله {. النساء/100 ..

ولا شكّ أن سرعة الوصول إلى الهدف مطلوب للسالك كما لا يخفى ..
واعلم أن المرتد عن الطريق يعاقب بتسلط الشياطين عليه ، بما لا ينفع معه دواء الأطباء أبداً ..

وأما في الآخرة فمصيره الندامة التي لا يرقى إليها عذاب النار .

السيد أحمد الموسوى الحائري

الوصية الرابعة للسيد أحمد الموسوى الحائري

إنني طالما قلت لك أن طريق النجاة منحصر بالذكر المستغرق ، والتفكر في النفس وأحوالها .. إذ الذكر والفكر هما دليلا السالك ..

سألتني أن أكتب لك شيئاً في التضرّع والابتهال ، وهذا ما يثير العجب !.. فهل هذا أمر يسطّر في الأوراق ؟.. وهل رأيت أحداً يعلّم الثكلى كيف تنوح على فقيدها ؟.. وهل رأيت من يعلم الأم كيف تربي ولدها ؟ ..

إن سؤالك يكشف عن عدم وصولك بالذكر والفكر ، إلى مرحلة اشتعال القلب بنار الفراق .. وكاشف عن تركك للمجاهدة التي بها تزول قبائح الاعمال والملكات ، والتي هي بمثابة نار مستعرة في جهنم الباطن .. فهل رأيت أحداً يُعلّم المحترق بتلك النار ، كيف يتضرع طالباً للخلاص والنجاة ؟ ..

وصية الحاج ملا حسينقلي الهمداني

لا يخفى على اخواني المؤمنين : أنه لا سبيل يقربك الى ملك الملوك جلّ جلاله ، سوى الالتزام بالشرع في كل الحركات والسكنات ..

ولا ينبغي الركون إلى الخرافات الذوقية ، ولو كان الذوق في غير هذا المقام حسناً – كما هو دأب الجهال والصوفية ، خذلهم الله جلّ جلاله

إذ لو اعتقدوا بعصمة أئمة الهدى (ع) للزمهم العمل بكل ما ورد عنهم .. فالتزامهم بإعفاء الشارب ، وترك اللحم مثلاً ، واختراع كيفيات في الذكر لم يرد عن السادات المعصومين (ع) خلاف ما أمر الله به ، وحينئذ لا تزيدهم مخالفة أمر الله تعالى إلا بعداً منه ..

وأقول لك بكل صراحة ووضوح ، مما دل عليه العقل والنقل : إن من أهم الأمور لطالب القرب من الله تعالى هو ترك المعصية ، ومن دون ذلك لا ينفعك ذكر ولا فكر في تصفية القلب ، إذ لا فائدة في خدمة السلطان من جهة ، ومخالفته من جهة أخرى .. فأي سلطان أعظم من سلطان السلاطين ، وأية مخالفة أعظم من مخالفته .

فافهم مما ذكرت لك : أن طلبك للمحبة الإلهية مع ارتكاب المعصية أمرٌ فاسدٌ جداً ، إذ كيف يخفى عليك أن المعصية سبب للنّفرة ، والنّفرة لا تجتمع مع المحبة أبداً ..!
وإذا تحقق عندك أن ترك المعصية أول الدين وآخره وظاهره وباطنه ، فبادر إلى المجاهدة ، واشتغل بتمام الجد بالمراقبة من يقظتك من نومك في – جميع أناتك – إلى نومك ثانية ، ملتزما الأدب في مقدس حضرته .. واعلم أنك بجميع أجزاء وجودك ذرة ذرة ، أسير قدرته .. فاراع حرمة شريف حضوره ، واعبده كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، والتفت دائما إلى عظمته وحقارتك ، ورفعته ودنائتك ، وعزته وذلتك ، وغناه وحاجتك ..

ولا تغفل شناعة غفلتك عنه - جل جلاله – مع التفاته إليك دائما.. وقم بين يديه مقام العبد الذليل الضعيف ، وتبصبص تحت قدميه بصبصة الكلب النحيف .. أوَ لا يكفيك شرفا وفخراً ، أنه أذن لك في ذكر اسمه العظيم ، بلسانك الذي نجسته بقاذورات المعاصي؟ ..

واعلم أن الرب الرحيم الكريم ، جعل لسانك مخزناً بجواهر النور ، يعني ذكره الشريف .. أو ليس من قلة الحياء بين يديه ، أن تلوث مخزن السلطان بالنجاسات والقاذورات من : الغيبة ، والكذب ، والفحش وغيرها من ألوان المعاصي ؟ ..
أوَ لا تعلم أنك بترك مراقبة جوارحك السبعة من : الأذن والعين واليد والرجل والبطن والفرج ، أية نار تشعلها في وجودك ؟ ..

وأي فساد تحدثه في دينك ؟.. وأي جراحات تحدثها في قلبك إن لم تقتله بذلك ؟..وماذا أقول لك عن أحوال القلب – في هذه الوريقات – وأنت الذي لم تطهّر جوارحك من دنس المعاصي ، فالبدار البدار إلى التوبة الصادقة ثم العجل العجل في الجد والمراقبة .!

إن على طالب القرب إلى الحق ، القيام في السحر قبل الأذان بساعة أو ساعتين ، مؤدّياً للنوافل الليلية بكامل حضور القلب ، مضيفاً إلى العبادة والمناجاة شيئاً من التفكر والتأمل ، وعليه باستشعار الحزن في كل أحواله ..

وبعد الفراغ من النافلة ، عليه بتسبيحات الزهراء (ع (وقراءة التوحيد اثني عشرة مرة ، وتكرار (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ..) عشر مرات ، وتكرار التهليل مائة مرة ، والاستغفار سبعين مرة ، وقراءة شيء من الذكر الحكيم ، ودعاء الصباح ، والالتزام بالوضوء دائماً مقترنا بركعتين كلما توضأ ، ولا يغفل عن قراءة القدر مائة مرة ليلة الجمعة وعصرها ، والسعي في عدم إيذاء الآخرين ، وقضاء حوائج المحتاجين ، ولا سيما العلماء ، ولا سيما الأتقياء منهم ..

وعليه اجتناب المجالس التي هي في مضان المعصية ، بل إنّ معاشرة الغافلين من غير ضرورة مُضرة ، ولو كانت خالية

من المعصية ..

واعلم أنّ كثرة الاشتغال بالمباحات ، والمزاح الكثير واللغو من القول واستماع الأباطيل مما يميت القلب ، وأنّ الاشتغال بالذكر والفكر من دون مراقبة لا يجدي نفعاً ، ولو أورث حالة الإقبال والخشوع ..

وعليه لا ينبغي الانخداع بالحالات الروحانية وإن أوجب ذكرا إن كانت خالية عن المراقبة .
ومن أبواب الإيمان العظيمة ، الحب في الله ، والبغض في الله .. وقد عقد له في الوسائل وغيرها من كتب الأخبار باباً مستقلاً ، فارجع إليها لعلك تعرف عظمته ، وتأخذ لنفسك نصيباً منه .

ولا أشك أن المحبوب الأول بالذات هو الوجود الإلهي الأقدس .. بل وكل محبة لا ترجع إلى محبته فليس بشيء ، ثم تسري هذه المحبة إلى أقرب الموجودات إليه تعالى ، الأقرب فالأقرب.. ولا شك أن هذه المحبة لا بد وأن تتعلق بالنبي الأعظم (ص (ثم من بعده بأمير المؤمنين (ع) ثم بالأئمة المعصومين (ع) ثم بالأنبياء والملائكة ، ومن ثم بالأوصياء ، ثم بالعلماء والأولياء .. وفي زمانه يقدم الأتقياء من أهل زمانه لا سيما العلماء وهكذا يتنزل ..

وليكن سعيه صادقاً في هذه المحبة ، لأنها مرتبة صعبة لو تأمل في لوازمها ، إذ لا بد من انعكاس هذه المحبة في حركاته وسكناته ، ليكون صادقاً وإلا فلا.. ولكن ظني أنك لا تصل الى كنه هذه اللوازم ، وليس عندي مجال لبسط القول في ذلك .

والحاصل أنه لا طريق إلى القرب ، إلا بشرعٍ شريف في كل كلي وجزئي .

مناجاة

إلهي !.. قد أصبتُ من الذنوب ما قد عرفت .. وأسرفتُ على نفسي بما قد علمت .. فاجعلني عبداً إما طائعاً فأكرمته ، وإما عاصياً فرحمته ..

إلهي !.. كأني بنفسي قد أُضجعت في حفرتها ، وانصرف عنها المشيعون من جيرتها ، وبكى الغريب عليها لغربتها ، وجاد بالدموع عليها المشفقون من عشيرتها ، وناداها من شفير القبر ذوو مودتها ، ورحمها المساوي لها في الحياة عند صرعتها ، ولم يخُف على الناظرين إليها عند ذلك ضرّ فاقتها ، ولا على من رآها قد توسّدت الثرى عجز حيلتها .. فقلتَ : ملائكتي !.. فريدٌ نأى عنهُ الأقربون ، ووحيدٌ جفاه الأهلون ، نزل بي قريباً ، وأصبح في اللحد غريباً ، وقد كان لي في دار الدنيا داعياً ، ولنظري إليه في هذا اليوم راجياً فتُحسن عند ذلك ضيافتي ، وتكون أرحم لي من أهلي وقرابتي ..

إلهي !.. لا تغضب عليّ ، فلست أقوى بغضبك ، ولا تسخط علي ، فلست أقُوم بسخطك ..

إلهي !.. أللنار ربتني أمي ، فليتها لم تربني .. أم للشقاء ولدتني فليتها لم تلدني .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

(1) تعريف بكتاب تذكرة المتقين
(2) تعريف بالمؤلف وأصحاب المراسلات
(3) آداب التوبة
(4) آداب المراقبة
(5) آداب الصداقة
(6) آداب السلوك مع المرأة
(7) آداب تربية الأولاد
(8) آداب الزيارة

(9) آداب الحج

(10) في صفات العلماء

(11) المراسلة الاولى للشيخ البهاري

(12) المراسلة الثانية للشيخ البهاري

(13) المراسلة الثالثة للشيخ البهاري

(14) المراسلة الرابعة للشيخ البهاري

(15) المراسلة الخامسة للشيخ البهاري

(16) المراسلة السادسة للشيخ البهاري

(17) المراسلة السابعة للشيخ البهاري

(18) المراسلة الثامنة للشيخ البهاري

(19) المراسلة التاسعة للشيخ البهاري

(20) المراسلة العاشرة للشيخ البهاري

(21) الوصية الأولى للسيد أحمد الموسوي الحائري لتلميذه

(22) الوصية الثانية للسيد أحمد الموسوي الحائري لتلميذه

(23) الوصية الثالثة للسيد أحمد الموسوي الحائري

(24) الوصية الرابعة للسيد أحمد الموسوي الحائري

(25) وصية الحاج ملا حسينقلي الهمداني